النغم
مرتاف قدر- ابتدأ منذ عام
١٩٩٣
من أبجديات الواقع،
من عوالم الأمل، حيث
كل شيء ممكن.
للمزيد من الحضور..
سناء
السلطان

إهداء قارئ ما :

كل من يبحث عن الذات ، كل من يبحث عن طريق .. !

" أصعب معركة في حياتك، عندما يرفعك الناس إلى لم تكن شخصاً آخر "

ويليم شكسبير

ربما ..

تُسد الثغور .. إن أغمضنا أعيننا عن العالم .. وفتحنا بصائرنا للعالم .

(النَغْم)

نحنُ نحيا كما نريد ، سعداء ، أشقياء .

أقدارنا لم تمنع إرادتنا يوماً .. نحن من منعها .

أكبر تغيير قد يحصل للعالم هو من داخلنا .

وأكثر فساد قد يدمر العالم هو من داخلنا .

" قُل هو من عند أنفسكم "

أجل ..نحن ..

نحنُ .. النَغَمْ .

_ سناء السلطان _

(البداية ، حيث لم تَكُن بعد)

على الحافة ، تتأرجح لثوانٍ تتنكه بالحيرة الآسرة ما بين كيف كنا و كيف يجب أن نكون .. على الحافة ، نُغدق بألسنة الهرطقة الطويلة : أنْ لو كان بيدنا تغيير الواقع ، قليلاً لو كان بيدنا فقط ، لعلنا سنحب الحياة .. أو نتقبلها ..

ساري الذي لام أمه وغالبًا ما نرمي أسهم عدواننا على القدر ، مثل لماذا تصبر على طويلاً لماذا أنجبته ! الأجدر أن يلوم أمه طويلاً وخساراته .. و الكثير .. وانكساراته .. المتواصلة شحنات انحساراته من المسومات حوله ، أدعى أن لا يلقي لها بالاً ، لكنه ألقى وألقى وألقى.

في حياة كلٍ منا قصة خاصة به ، لا يمكن ولا حتى من قبيل الصدفة أن تشبه قصة أحد مهما بدت متشابهه بغيرها ، تبقى مختلفة ما دامت لك أنت ، وإن تشابهت فهي حتماً ستختلف ، لكونك صاحبها بمشيئة القدر ، تتقطع كل فروع التماثل عند البحت وينتصب خيط الأصل .. وهو أنت .

فقد لا يستحضرك أنك تمتلك تكوينة فريدة ، وعبر مر العصور والحقب لم تطرأ بأمها و جلها ودقها على غيرك ، حتى وإن نطق منظورك بالحكمة وقال إنك تشبه على الأقل أربعين يشبهونك على هذا الكوكب ، لا لا ..لست طفرة ، لكنك كبصمة الأصبع لا تتماثل مهما تشابهت الأيدي والتعرجات .

الواقع شيءٌ آخر .. بحتمية تقدس سنه من سنن الحياة ..سنة الاختلاف .

حياتك ليست صفحات تطويها حلوة كالشهد كانت أم لاذعةً كالعلقم وإنما هي أنغام ..إحساس أكثر من كونها ماده .. ما حولك لا يمكن أن تفهمه إلا إذا شعرت به .. الأشياء التي لا تشعر بها لن تفهمها أبداً ، أو لن تفهمها كما هي على الأقل ، فعندما لا تتضور جوعاً لن تفهم لماذا يتعارك العشرات بل المئات في أفريقيا على رغيف خبز وصل للتو من قبيل التبرعات النادرة في المناطق النائية .. عندما تحيطك النعم ولفرط وجودها لن تكترث لها كما لو كانت فعلاً مسلوبة منك .. ولن تفسر على قدر إدراكك للماهيات التي تحوط عالمك لماذا يبكي الليل كله من حرم منها .. ما لم تشعر ..لن تفهم .

قبل أن تولد كانت الحياة صاخبة جداً يا صاحب الشعر الأشقر والعينين الزرقاوين ، كان كل شيءٍ سريع بدرجة أقل من سرعته الآن ، قدمت فرحاً عام 1993 .. العام المفضل لدي إلى الحد الذي قضيت فيه أجمل أوقاتي رغم أنني عانيت في ولادتك .

لا تفهم أنت كشاب شديد الوسامة ، مرفه من الطراز الأول ما أرمي إليه ، في العام نفسه شهدتُ ولادة ثلاثة معك : أولهم النعجة التي يربيها جدك في مزرعته الكبيرة ، لقد أنجبت حملين وديعين هزيلين ، سببا نشوةً كبيرة لجدك الوحيد ، وصديقتي السيدة هنادي التي أنجبت صبياً ظننا أنه لن يعيش طويلاً ، لكن الله كتب له عمراً وألهمك إياه سنداً في الحياة ، ما زال لا يغيب عن ذاكرتي القديمة أنها كانت في شهرها الخامس عندما وَضَعتكَ يا بني ، رأتك ملاكًا في مهدك ، وشدها مرارًا رضيع بهذا الجمال ..أي رغبة اجتاحتها لتصر على أن يكون مولودها القادم جميل مثلك ، أشقر مثلك ! الطريف أن شِفتها تشققت من كثرة ابتلاعها الليمون ! أوتظن هذه السيدة الخرقاء أن وليدها المنبعث من رحمها سيكون أشقرًا هكذا ..عنوة ! بالمناسبة ، عبثًا حاولت ، فقد باءت حزمة من خططها بالفشل مرة بعد مرة ،

حتى أتى مولودها حنطيًا بشعر أسود مجعد يعاني فقر الدم المنجلي ! اكتفت بدموع الفرح (المحزنة الراضية) وتمتمت .. يكفي أنه خرج ! المهم أنه ليس مريضًا جدًا !

ولكم كنت رضيعًا يهواه الجميع ببساطتك وبرائتك ..كما خلقت كنت ..هل يبدو أنك تغيرت !

****

الفصل الأول

(لقاء الشرق بالغرب)

_ الساعة الآن السادسة صباحًا ! إنه موعد أسوأ موعد على الإطلاق لا ليست المدرسة .. وليست الجامعة .. وليست الوظيفة.. وليس موعد التسوق الإجباري التعسفي السوفييتي النازي لوالدتي البتة البتة.
إنه موعد الوقت الذي أقابل فيه أكثر شخص مغرور في العالم .. أكثر شظية نارية وهاجة نزلت بقربي جراء انفجار عظيم من بطن أمه ذات ليلةٍ لم أحضرها ، خرج من القَدر نيزك مضيء يدعى " جياد" .. جياد الذي قلب حياتي وصار من حياتي ! جاري وصديقي وقدري .. معالي السيد جياد !

- جياد: مرحبًا يا صاح ، كيف حالك ؟
- ساري : بخير يا صديقي .
- جياد : ما رأيك بشكلي اليوم ؟.. أعلم أنني وسيم ولكن أريد أن أسمع "وسيم" من لسانك .
- ساري: ربما تكون .. غبي.
- جياد: أنت تغار مني ، أخشى أن تصيبني عينك.
- ساري : الآن تأكدت أنك غبي فعلاً .

كان يزعجني جدًا هذا الصديق رغم أني كنت أحبه للغاية ، لا أدري أي غيضة تتشل صفاء قلبي عندما يبدأ بقول مثل هذا الكلام ..

ويخبرني عن أناقته ووسامته وأسماء المعجبات به كل صباح.. باذخ حبه لنفسه هذا !

لم أكن أغار منه ، لم أكن أكرهه .. لكنني كنت أود لو لم يكن بهذه الوسامة ... لأنها سلبت مني ثقتي بملامحي ..
في ممرات الجامعة عندما أمشي معه أشعر بأني صفر يقف وراء مئة ، أحس أني بقربه الشبح ، لا بل ماموث لقي مصرعه قبل الوجود ..فارق حي يفصل بين البلاستيك والذهب ، لا قيمة لي أمامه ، مع أني أعلم أن الوسامة ليست كل شيء .. رغمًا عني أتهشم بهذا الإحساس ، اتآكل طويلاً ، فليته كان وسيمًا فحسب ..لقد كان أكبر من أن يكون شخصًا عاديًا حسن الخِلقه .
مشكلتي بدأت منذ أن ولدت معه في نفس السنة ، القدر الذي لا مفر منه .. منذ عامٍ 1993 وهو يسابقني في كل شي، لم يكتفي هذا الأرعن بمسابقة الزمن ، بوفرة الرغد الذي ينعم به سنةً تتبعها الأخرى ، طغيانًا بذاتٍ سادية أتوهمها عنه أنه " يسابقني" دون أن يعلم ، يجري لا لكي يجري ، يجري كي أكون في الخلف .
المراحل الأولى من المدرسة نفتني مني بسببه ! كنت أشعرُ بنعيم حظه إذ أن جميع الطلاب والمدرسين يحبونه ، ليس لأنه ذكي وحنك ومتفوق وبارع في الرياضيات فقط ، ولا لأن حاسته السادسة دائمًا ما تصيب فقط بل لأنَ الجميع يراه مثالي في كل شيء .. ربما أكون الوحيد الذي لا يراه كذلك.

جياد ولد في بيئة لم تشبه البيئة التي ولدت فيها مطلقًا مطلقًا.
جياد لديه أم لطيفة وحنونة وشقراء ومن أصول أجنبية ، ولديه أب تاجر للمجوهرات لا يرفض له طلبًا .. ولديه أخت تبلغ من العمر

زهره فواحة واحدة لا تحدث له أي ضجيج أو ضغط أو منافسة .
وهو الفتى الوحيد لعائلته، الذي امتلك جميع العطايا والهبات .. النعم التي توزع على كل عشرون شخص امتلكها هو بمفرده..
مدلل للغاية ، يستطيع أن يشارك في أي نادي يحبه ، يهوى الحياة .. وسيم وسيم وسيم وهذا يكفي في نظري لجعله يتقلب في زمرة السعادة .. متفوق على أقرانه في دراسته .. المال والأعمال والإدارة .
أما أنا .. فلا شيء.
من أسرة أقل من متوسطة الدخل ..لا أمتلك سيارة حمراء مكشوفة مثله ، ولا يتهافت عليَّ المحبين من كل صوب ولا أشعر أن لي أم وأب .. أدرس السنة الثانية من الجامعة في كلية الآداب ، قسم اللغات .. والدتي خياطة في إحدى المعامل النسائية وهي مرحة للغاية وتتصرف بطريقة ساذجة جداً ، تسبب لي تصرفاتها الكثير من الإحراج خصوصاً أمام أسرة جياد ، والدي غير مسؤول ومتزوج على والدتي بامرأتين وأظن أن هذه الخطيئة التي جناها والدي على نفسه سببت له زهايمر وصداع وانفصال غضروفي وآلام في عموده الفقري وإلتواء في مفاصله ونقص حاد في المناعة .. إن الزوجتين الجحيم برمِ عينه .. موظف بسيط في قطاع حكومي كأبي لا يمكن أن يلبي احتياج ثلاث أسر ، لدي من والدتي أربع أخوة صغار أشباح وأنا أكبرهم ، ولدي أخت أصغر مني بسنتين ، هي الآن في المرحلة الأخيرة من الثانوية العامة وهي النعمة من بين النقم ..هي الزهرة وسط غابة الأشواك ، لطيفة جداً وهادئة ولا تجرأ على مضايقتي ، أما عن زوجتا أبي ، فأحظى بشقيقة رضيعة من زوجة أبي الثالثة ، وثلاث أشقاء أصغر مني من زوجة أبي الثانية ..الأفواه تصرخ ، الضوضاء هي لغة الحوار في منزلنا ، فوضوية شديدة عائمة هنا وهناك أجهل مصدرها ، أتكون من الجوارب الملقاة على سطح السرير ، أم من رأسي الغارق في

التشتت ، أو من أوراق امتحانات سابقة نسيت رميها منذ العام الماضي ، أم يا تُرى لأن لي أخوة صغار
مفرطو الحركة، وكثيرو الشغب ولا يوجد لدينا خادمة ومربية وطباخة ومحاربة تجاريهم أكثر من أمي .

حياتي كانت باهتة ، مليئة بالاصتدامات خصوصاً مع والداي اللذين لا يعجبهما العجب، لا تروق لهما درجاتي، لا تروق لهما تصرفاتي، لا يتقبلان عنادي ، يريدانني شاباً مثالياً وهما لم يكونا ولو ليومٍ واحد الأبوين المثاليين في عيني ، بل إنهما طالما أسمعانني " أنظر إلى جياد وانظر إليك ! " المقارنة بحد ذاتها مستفزة ليس لكونها غير عادلة بقدر أنها تزيد من ثقتي بنفسي الغافية تحت الأرض انحطاطاً ، وترميني إلى عوالم الحظيظ حيث لا شيء سوى اللا شيء ، ومع أن مسيرة العنف الأسري قد خفت الآن ،وأن غبار الحروب السابقة قد انقشع قليلاً ، لأنني خرجت من المراهقة المريرة للتو ..إلا أنني ما زلتُ فاشلاً .. حتى لو نضجت قليلاً!

أتساءل ! كيف لنا أن نعيش في ظل هذه الظروف العسيرة من دون أصدقاء ! كيف للحياة أن تُبلع تطاق بدونهم ؟ صحيح أنني أرى كل شيء يتداعى أمامي ويتحطم مني ويتداعى ورائي ويتحطم بسببي ، وكل شيء ناجح ومبدع من جياد ، أتصدقون أنني مع كل هذا لا استطيع أن أقضي لحظة من عمري بدونه !

ربما لكون الأيام تضخُ الاعتياد عليه مذ كنا صبيه نتوشح أضواء النار مواقد فرح في ليالي الشتاء القارصة ، ونستهل بالأمنيات منابر الحب..ربما لأن منزله الفاخر جداً بقرب منزلنا العادي جداً وأنا جارٌ له .. أكلُ هذه الأسباب كافية لتكون علاقتي معه عميقة إلى هذا المدى ، إلى الأخوة ..إلى المحبة ، إلى الاعتياد!.

- ساري: سوار ! ماذا تفعلين ..

- سوار (أخت ساري) : طلبت مني والدتي تنظيف السجاد ثلاث مرات ومسح النوافذ ومحق كل ذرة غبار في الصالة .

ساري: لا تنسي البسملة .

- سوار : هل تحاول أن تمزح ؟

- ساري: أنا محظوظ لأني صبي ، " يغني".

- سوار : أنت دائم التضجر ، مالذي يجعلك محظوظ الآن! فقط لأنك لا تفعل ما أفعل!

- ساري: دعكِ من هذا الآن ، واخبريني لما تفعلين كل هذا !

- سوار : ماما دعت جيراننا أسرة جياد لحفلة عيد ميلاد " نوير" الليلة ، وسيتناولون العشاء معنا.

نوير هي شقيقتي ذات السنتين من زوجة أبي الثالثة .

- ساري (يصرخ) : مستحيل !!! من سمح لها بهذا !

- سوار : مزقت طبلة أذني ، أذهب واسألها بنفسك .

لا تعلم سوار كم يبدو مخجلاً هذا اليوم الذي يزورني فيه جياد مع أسرته الرفيعة المستوى ، مع أنها لم ولن تكون الزيارة الأولى فقد زارني من قبل مراتٍ عدة، لكنني في كل مرة أتمنى لو تنشق الأرض لتبتلعني ولا يرى منزلنا وطريقة حياتنا وطعامنا الشعبي وأخوتي المشاغبين الذين لا يتصرفون بلباقة..أتعرق ، أبلع ريقي، أغص .. أحمر أخضر أزرق وأغضب .. أتوجه إلى المطبخ ..أتجاسر ..

ساري (بغضب) : أمي مالذي حصل لعقلك! أنتِ تعرفين الفرق بيننا وبينهم لماذا تصرين على دعوتهم في كل مناسبة ،ألا يوجد أشخاص تعرفينهم سواهم !

السيدة هنادي: تأدب يا ولد ! ولا شأن لك بالمدعوين .. ثم مالذي يجعلك ثائرًا هكذا ،ألا تريد أن يشاركك صديقك فرحًا ولا حزنا!

ساري: إنهم أرستقراطيين .. ونحن كل عيوب الناس في أسرتنا جامعة!

السيدة هنادي: بني .. الذي يحبك سيتقبلك كما أنت ، لن ينظر أمامك إلى فوارق تافهه لا قيمة لها عند الله !

أمي دائماَ تقول حكمًا وأمثالاً لا أدري ممن تقتبسها ، كلما شكوت لها قالت لي حكمة من الفضاء الخارجي لا اقتنع بها ، كثيرًا ما كنت أشعر أن أمي لن تفهمني أبدًا .

عفويتها تتعبني ، بساطتها تحرجني، أمي لا ترتدي ثيابًا أنيقة كوالدة جياد .. ولا تصفف شعرها الملتو والمتطاير ، ولا تفقه شيئًا في الموضة والأزياء ..رغم ضعفها أنا أفتقد الأنثى عندما أراها .. !

حاولت يمنةً ويسرى أن أصرف جياد على الأقل من زيارتنا الليلة ، لأنني أتوسد نائلة همه أشد من هم مجيء أسرته ..سطع فجأه مصباح أصفر فوق رأسي المعتم وقررت الاتصال به لأدلي دلوي .

(على الهاتف)..

- ساري: جياد أرجوك أريد أن أخرج أنا وأنت الليلة لمعرض السيارات.

- جياد : لماذا ! هل تود أن تشتري سيارة جديدة !

-ساري : ربما .. وأنت من سيحددها.

- جياد: هههههههه من مصروف جيبك أم من حصالتك !

- ساري : توقف عن السخرية ..

- جياد : مشكلتك أنك غير منطقي ، تريدني أن أختار لك سياره وأنت لا تملك ثمنها! أنت تعرف أنني لو اخترت لك فلن اختار لك سيارة عادية .

- ساري : لن اشتري الآن .. سآخذ قسطًا من البنك واشتريها فيما بعد ، المهم أن نذهب إلى المعرض.

- جياد : والدتك دعتنا لحفلة الليلة ! ألا تريدني أن أحظر !

- ساري (يتلعثم): من .. من من قال هذا ، يا أهلا وسهلاً لقد نسيت .. يالي من أحمق.

ليتني لم أحاول التهريب به إلى أبعد نقطة جغرافية عن حفلة عيد الميلاد اللعينة هذه ، أخشى أنه لاحظ رغبتي بعدم مجيئه ، لا جدوى .. يجب أن أضع نفسي أمام نفسي لأستسلم راضخًا لمهزلة الأمر الواقع ، وأنزل إلى هذه النازلة .

- سوار : أمي هل أزين الكعكة ؟

- السيدة هنادي: كلا ، يجب أن يتماسك القوام ثم نضع عليها الكريما.

وليد (12 سنة / شقيق سوار): أمي ماذا أرتدي ؟

ناجي (10 سنوات / شقيق سوار) : أمي أريد أن أتذوق الحساء .

سوار: سأذهب وأرتدي فستان العيد الماضي إنه الأنسب ..

ساري : يا أنتم يا كائنات غريبة ! مالذي تفعلونه في المطبخ إلى الآن .. سيصل الضيوف بعد دقائق ..

عجَ المنزل بالصراخ والضَجّة والصراخ والضَجّة ..أحس أن جدران منزلنا تهتز كأنه الزلزال ! سوار الوحيدة التي كانت تقف بجانب أمي لمساعدتها ، فهي من تكفل بكل شيء يتعلق بالحفل ..تزيين .. طهو ..تنظيف .. والاهتمام كذلك بثياب أخوتي ونظافتهم.. شعور غريب انتابني عندما دخل جياد إلى حديقة المنزل ، شعرت بأن كل خطوة يخطوها نحوي هي كل خطوة أتسمم فيها ، هل تتعمد تسميمي يا جياد! كان أنيقًا للغاية ، ثوبه الأبيض الذي نسجته رائحة العود والأصالة ، وشعره الطويل الأشقر الذي انسدل إلى كتفه ، ونظراته الحادة الساحرة ، ينظر فيأتي الربيع وتبتهج الأرض ! يبتسم لتشتعل الفتنة في المكان ، شخصيته باذخة القوة الواثقة التي أعرفها من هيئته وتقاسيمه أربكتني أكثر ..أنا لا استطيع حتى الوقوف أمامه ، إنه وقوف الحنظلة أمام الوردة إنني بقربه الفارق الشاسع بين السماء والأرض .. بين الشرق والغرب .. بين النقيض والشبيه .. إني أبدو ضئيلاً جداً حتى في مقدار اعتزازي بذاتي وثقتي بنفسي أمامه ، حتى زوجات أبي المصروعات ! لمحتُ في أعينهنَ إعجابًا شديداً بكمية الجمال واللباقة والمثالية والسمو التي تحظى بها أسرة جياد ، ويحظى بها جياد خاصة .

(في الحفل)

- السيدة هنادي : سعيدة جداً بزيارتك سيدة ليليان ..

- السيدة ليليان (والدة جياد): وأنا أيضًا يا جارتي العزيزة ..أرى أن منزلك مرتب للغاية .

- السيدة هنادي : أجل لقد أجريت بعض التحسينات بديكور الصالة ، لكنه لن يعادل أناقة منزلكم.

- السيدة ليليان : آهه من لطفك .. سوار يا حبيبتي كيف أحوال دراستك ؟

- سوار : شاقة ومنهكه .. لكنها ستثمر بالتأكيد.

- السيدة ليليان : إن شاء الله ..أود أن أسمع أخبار طيبه عنك .. بالمناسبة لم أرى ساري !

سوار تأتي لتناديني وتذهب مع أمها لإحضار العشاء ..

- السيدة ليليان : كيف حالك يا بني ؟ من الواضح أنك انشغلت بجياد عنا .

- ساري (محرج) : لا ليس كذلك ..أنا بخير .

- السيدة ليليان : كيف هي أمورك يا ساري! تبدو شاحبًا ألا تهتم بصحتك ؟

- ساري : الحمدلله على كل حال ..لا تقلقي بشأني .

كثيراً ما يسحرني لطف والدة جياد ورقتها معي ،إنها تعاملني كما لو أنني ابنها الأكبر مع أني مجرد صديق لإبنها ، اغبطك حقًا يا جياد على أم ملائكية حنونة وجميلة وفي بداية الثلاثينيات مثل والدتك ، دائمًا ما تتفقدني وتتفقد صحتي ، وترسل مع الخدم نوعية الطعام الذي أحبه إلى كراج السيارات الذي اعشعشُ فيه لأعمال الصيانة .. إنها تمنحني دفئ الأمومة وأشعر فعلاً أنه لا يليق بها سوى أن تكون أنثى أنيقة كما هي ..عكس والدتي ! ليتني استطيع أن أتقبل والدتي كما أتقبلها وأن أشعر بأمي كما أشعر بأم صديقي!..

أحدث نفسي ولا أفصح عن خَلجاتها .. وأراقب بسكون مالذي يحصل ثم أسحب أخوتي كلما هموا بفعل شيء يخجلني أمام جيراننا ، يخطف المشهد ناجي الطائش وهو يحاول أن يصل إلى

مركز الكعكة كي ينزع الفراولة بمرأى من الجميع ، أفزع وأقد قميصه من دبر ليتراجع .. أهمس له همس المردة والشياطيين " تراجع وإلا .. " .

انتهى الحفل .. الحفل الذي بدى لي سنة أو يزيد ، ودعَ الجميع بعضهم بعضًا ، وانطلقت أمي بسرعة الصاروخ إلى النوم بعد يوم حافل ومرهق بالنسبة لها ، بينما بقيت شقيقتي سوار ترتب الحديقة التي وضعنا العشاء فيها ، في ذلك الليل الهادئ بعد غثيان أصوات العالم مجتمعة في منزلنا وبآنٍ واحد ، و حيث أن السماء ازدانت صفاءً ،والقمر بازغًا يشبه مرجانة .. كان جياد يتكأ على سور منزلنا يحادث صديقه فارس الوسيم والغني مثله بهاتفه المحمول ، وكنت انتظر أن ينتهي فوراً لأقدم له عذري على حفلة اليوم البسيطه خجلاً منه لحضورها وهي لا تليق – كما يبدو لي - له ، بيد أنه أطال قليلاً فغادرت لإحضار إحدى المفكرات الجامعية الخاصة به والتي نسيها عندي البارحة .

جياد انتهى من المحادثة ، والراجح أنه التفت من السور المكشوف للحديقة إلى أختي سوار في الوقت الذي غفلت فيه هي أن جياد كان ينظر إليها ، ما إن أدارت وجهها والتفت حتى رأت
رجلاً غامضاَ يتكأ على سور منزلنا ، وبسبب الظلام لم تعرف ماهيته ، فزعت وألقت ما في يدها وتولت مكفهرةً إلى باب المنزل إلا أنه كان موصداً بإحكام لأني دخلت وأقفلته ونسيت أنها ما زالت في الحديقة .

لم تجد بداً للفرار من حديقة المنزل إلى الشارع ، ظنت أن الرجل الواقف لص ! كم هي بسيطة حتى في توقعاتها ! عنفوانية بتجاربها المعدودة إذ أنها لم تعرف أن شاباً في منتهى الوسامة كان مكان اللص !

تفاجأت سوار أن الرجل ما زال يحدق بها، بدى لها أنه مُصر على أذيتها ، فصرخت بكل ما أوتيت من جبروت في وجهه..

- سوار: هيييه أنت ، ماذا تريد .. لما أنت بقرب منزلنا أيها اللص!

- جياد: هههههه لص يا جبانة !

- سوار (تقترب) : أنت جياد صديق أخي أليس كذلك !

- جياد : بلى بلى كذلك ، وأنا انتظره .

- سوار: آسفة بحق ، علي المغادرة .

- جياد: أنا الذي يجب أن اعتذر فقد اخفتك ..

- سوار : لا مشكله .

- جياد : لم يخبرني أخوكِ الفالح يوماً أن لديه أخت شابة ظننت أنه لا يملك سوى أشقاء صغار!

- سوار (بنبرة حزن): لأنه يخجل مني ! بالتأكيد أخفى عنك هذا لأنه لا يريد أن تعرف أن لديه أخت بسيطة بثياب بسيطة مثلي ..لا تهتم.

- جياد : لكنني لا أرى ما تقولين ..

سوار أحست بأن أحدهم قادم فقررت المغادرة في الحال من باب المطبخ وراء المنزل ، وخرجت أنا بعدها حاملاً مفكرة جياد من الباب الرئيسي ، ولحسن حظها ، لم أرى سوى جياد .

- ساري :هل انتهيت من محادثتك الطويلة مع فارس !

- جياد : جاءت في وقتها لقد أدهشتني !

- ساري : من تقصد!

- جياد : ال ال المفكرة .

- ساري : لم أكن أعلم أنك تمتلك صفة سلبية وهذا لا يصب في صالحك مطلقاَ ، ألا وهي أنك كثير النسيان!

- جياد : حتى توقن أننا لسنا رائعين في كل شيء .

- ساري : أحبك كثيراً يا صديقي ،وأحب روحك التي عجزت عن فهمها .. أنا حقًا متأسف لبساطة وتلقائية حفلة اليوم .

- جياد (يضع يده على كتفي) : لا تقل ذلك ، إنه لشرف كبير لي أن أزورك وأشاركك بعضًا من أفراحك ، ثق بنفسك أكثر ، اتفقنا.

- ساري : اتفقنا ..

- جياد : حسنًا ، سأنصرف الآن ، أراك غدًا في الجامعة ..

- ساري : وداعًا جيادي .

في العِليه ، غافلُ تمامًا عن أختي سوار .. الفتاة التي استتر منها ،وكأنها " عيب" بلا عيب! .. إنها دائمًا مقوقعة في المنزل .. يكلفها أهلي بتحمل المسؤولية منذ صغرها لكونها أكبر فتاة في عائلتنا فهي من تغسل ثيابي وتكويها ، وتصنع لي الطعام عندما لا تصنعه أمي ، وترتب غرفتي وتنصحني وكأنها أمي ، وهي مستشارتي الخاصة عندما تواجهني الأزمات ..تصبر على غضبي وعنادي وعنفي أحيانًا معها .. تتحمل أخوتي وفوضويتهم ، قليلة الخروج من المنزل ، شديدة الاهتمام بمستقبلها .. ويعجبني فيها الصبر! الصبر الذي لا حدود له ..ويعجبني فيها الفأل ، الفأل الذي لا حدود له .

بعض الظروف المؤلمة التي مرت في حياتي وحياتها عجزتُ عن تحملها في الوقت الذي تحملتها هي بأسرها و حملت فوقها عني ظروفي و همومي .. أختي لا شبيه لها في العطاء ..روح

متفائلة تحب الحياة .. تحب الحياة مثل جياد ..إلا أنها ليست شقراء مثل جياد!

هل جننت يا ساري! كيف لك أن تقارن بهذه الطريقة القبيحة التي تنزع كل شيء إلا معايير الجمال النسبية!

بالنسبة لي فإني أرى أن أختي هي أجمل الفتيات ، لأنها تمتلك روحًا عجزت أنا عن امتلاكها، أختي جميلة بملامحها ولكن .. لماذا خجلتُ أن أخبر جياد أن لي أخت لا أدري ! مع أن جياد جاري وصديقي ونشأنا قريبين جداً من بعضنا .. إلا أنه لم يعلم بأن سوار أختي وليست أخت لي من زوجات أبي إلا اليوم !

سوار لم تخبرني أنها قابلت جياد ..هي تعرف أني سأوزعها ضربًا بأقرب " عقال" لو قالت ذلك ، لكنها عفوية إلى حد أن مجرد سرحانها قد يفضحها! فعندما دخلت غرفتها في المساء وجدتها شاردة الذهن متوردة الخدين ..سألتها:

- ساري : لما لم ترتبي الحديقة !

- سوار : جياد أنا متعبة .. سأرتبها غدًا!

- ساري (بعينين تتسعان) : جياد!

- سوار (تنتبه) : لا ..اقصد ساري ، لكثرة انشغالي بالتجهيز لأسرة جياد صار اسمه على طرف لساني !

- ساري : اها .. تصبحين على خير .

- سوار : وأنت كذلك ساري .

****

الفصل الثاني

(بكاء منتصف الشتاء)

_ نحن الآن في منتصف كانون الثاني ، حيث نشهد شتاءً بارداً جداً لم يسبق لمدينتنا أن شهدت مثله ، البرد الذي جعل الظهور يختفي والوجود يغيب ، إذ أن القرفصة تتبعني في غدوي ورواحي ..مرفه كأنا يرى أن " القرفصة " الشعور الأسوأ على الإطلاق حالياً .. فقد قررت أن أهاجر مع الطيور إلى البلاد الدافئة ،ربما ليس بعيداً إلا أن الرغبة بالاستجمام تحث خطاي لأبعد موطأ إذا شئت ، عرضت على فارس أن يسافر معي لقضاء أسبوعين بالتمام والكمال خارج حدود الوطن ، فارس لم يتردد ولم يمنعه المنع نفسه ولا أي عارض للسفر معي ، لكن من امتنع ومنعه المنع.. ودون أن يبرر لي سبب امتناعه ساري !

ساري الذي أعده أقرب من الأخ وأقرب من أن يكون أخي فقط ، ساري الذي لا يمكن أن تشبه علاقتي معه أي علاقة أخرى ، أصدقاء حتى الدم .

الله ، أعطاني الذي لا استطيع أن أحصيه ، أعطاني نعماً جماً لكن النعمة التي جعلتني سابحاً نحو أفق الأمان والدفء نعمة وجود ساري معي .. يظن صاحبي هذا أنني في غنى عنه ! يظن أنه من السهل تكوين صداقات كصداقتي معه ..نحن لا نختار الأصدقاء ، الأصدقاء عطية من الكريم ، لا يخفى على عاقل أننا نختار أحياناً ، ولكن في عملية الاختيار نحن نواجه كل الاحتمالات ..قد ننسجم مع الشركاء الذين نختارهم وقد لا ننسجم .. قد نرتاح وقد لا نرتاح ..قد يفهموننا وقد نجد صعوبة في البوح لهم ..إلا أن "ساري" لم يكن اختياري ، كان اختيار الله لي .. لذا و على قدر الاختلاف الذي ينزعني أمامه من دائرة المفترض أرى أن علاقتنا متجانسة ومميزة ..الأرزاق

التي تأتي من الله ..دائمًا، تكون أفضل من اختياراتنا ، فقد يعجبك الارتباط بإمرأه اخترتها أنت من رفيع ذوقك ، وتكافح الأرض ومن عليها لكي تحوزها مهما كلف الثمن ، و يرى الله أنها لا تناسبك .. فينتهي كل الجهاد والإقسار الذي صنعته عمرًا طويلاً منك ، بمصير لا يجمعك معها، لتكتشف بعد عمرٍ طويلٍ منك آخر أن اختيار الله أكثر جودة من اختيارك ، بل ليس هناك مجال للمقارنة .. يخصب تأملك ، تتمنى لو لم تعرف المرأه القديمة التي لم تصبح أمًا لأطفالك ، تتمنى لو وثقت ، باختيار الله.

لمَا أن وصلت المطار الدولي حازمًا أمتعتي أنا وفارس ،كانت السماء تمطر بغزارة ولهذا الحدث الإشكالي تم تأجيل رحلتنا إلى يومين من الآن ريثما تتحسن الظروف المناخية ، لم أجد بأسًا في ما حصل فقد عددتها فرصة زخمة لدعوة ساري وبعض الأصحاب معنا ..أنا فتىً اجتماعي يسليني خوض المغامرات والسفر مع أكبر قدر ممكن من الأصدقاء .

- فارس : يا للخيبة ! ما حيلتنا الآن !

- جياد : على رسلك يا رجل ، لا مشكلة .. سندعُ بقية الصحب في اليومين المقبلين .

- فارس : أنت تعلم يا جياد أنَ غانم سافر قبلنا ، وتركي وساري رفضا بشدة ، أما سعد فقد تعذر ..لما نجبرهم على شيء لا يودونه.

- جياد : سنحاول للمرة الأخيرة ..

ساري قد أخبركم من أكون من وجهة نظره .. من منطلق تفكيره الذي يرى أني شخص سعيد في كل شيء ولا أحد يقدر أن ينغص علي صفو أيامي ، يجتاحني دائمًا شعورٌ مر بأنه يكرهني لقَدري .

أدعى جياد .. في السنة الثانية من المرحلة الجامعية ، قائد للفريق الرياضي في حيينا ، ومؤخراً عينني والدي كمسؤول على بعض تجارته في إحدى الفروع بشركاته العقارية.. بشهادة الجميع أنا شخص ذكي جداً وبشوش جداً وقادر على مساعدة الآخرين واحتوائهم .. جداً .. وقد لا حظ بعض الأساتذة لي في الجامعة موهبتي الشديدة في حل مشاكل الآخرين ومساعدتهم، خصوصاً النفسية والأكاديمية ، لذا اقترح الأستاذ "بديع" مع الأستاذ "راشد" على مسؤولين عمادة شؤون الطلبة أن أكون أنا الطالب المرشح لمنصب "رئيس المستشارين الطلبة" في جامعتنا الضخمة ، يتم كل سنتين اختيار طالب أو طالبة من كل تخصص .. ما لا يتجاوز عشرة طلاب ، الأفضل بينهم بإجازة الأساتذة يعين لمنصب رئيس المستشارين الطلبة ، ويعين خمسة آخرين من الأعلى إلى الأدنى لمناصب أقل في نفس القسم ..ولأني الطالب الوحيد ومنذ السنة الأولى حتى الآن حصلت على سبع إجازات وتجاوزت الثلاثين ساعة المطلوبة فقد صرت أنا رئيس المستشارين .. وقد خصص لي مكتب استقبل فيه يومياً بعد انتهاء محاضراتي عشرات الطلبة والطالبات لأغراض الاستشارة ، من خلال هذه المهمة التطوعية نشأت بيني وبين بقية أعضاء فريق المستشارين الطلبة صداقات قوية .. فهم يرجعون إليَ للاستزادة وأنا المشير لهم بالبنان طبعا بما يفعلون .. مسؤولية القائد لم تكن بسيطة أبداً ، مهمتي وبقدرٍ كبير لم تكن الانشغال بهموم الطلاب ، بل إن كل مستشار يرجع إلى القائد وهو أنا بكل ما يقوم به ، فأنا كقائد .. يحتم عليَ الصبر ، الاحتواء والتفهم .. والاستعداد لكل أنواع المفاجئات والقصص الغريبة والواسطات.

فارس مساعدي المخلص في قسم الاستشارات ..غانم يتولى مهمة تحويل الاستشارات الإلكترونية وإرسالها لي .. وتركي الطالب المسؤول بإجازة الأساتذة على تنظيم النشاطات المختلفة في الجامعة ، أما فدوى فهي الإدارية المسؤولة عن تفقد صناديق

الاقتراحات وبث الشكاوى والإتيان بالاستشارات إليَ من الطلبة بكل كلية .. وندى طالبة السنة الأولى السكرتيرة الدؤوبة واللطيفة للفريق ..إننا نعمل بآلية منسجمة على الإطلاق .

(جياد) (20)/ (واثق ، قيادي ، أريحي ، متفهم ، متفائل) .

(فارس) (20) / (هادئ ، بجانب جياد دائماً ، طيب ، متعاون ، كتوم).

(غانم) (19) / (مرح ، كسول ، طائش)

(تركي) (19)/ (عاطفي ، خجول ، كئيب ، متردد)

(فدوى) (19) / (مثابرة ، عقلانية، قوية ، دقيقة ،عصبية).

(لينا) (18)/ (لطيفة ، شاعرية ، هادئة ، خجوله).

(في المكتب)

- غانم : أيها القائد .. ثمة عطل في شبكة الإنترنيت .. أريد مفتاح الشبكة الاحتياطية لاستقبال الرسائل.

- جياد : أنا مشغول الآن أطلب من ندى أن تزودك بعنوان الخادم .

- فارس : تركي لا تبدو على ما يرام اليوم ! ما لقصة .

- تركي : الجو بارد جداً في الخارج ، والساعة الآن تقترب من الخامسة عصراً ونحن ما زلنا في الجامعة ، كم أود الخروج لتناول الغداء .

- فارس : أنا اتضور جوعاً أيضاً ، ولكن علينا أن ننتهي من عملنا أولاً.

- لينا : أين جياد ؟

- غانم : أنا جياد .. ماذا تريدين ؟

- لينا : غانم كفى .. أريد جياد .

- غانم : ابحثي عنه جيداً ستجدينه مصفوفًا بين الكتب .. لا تنسي أن تمسحي الغبار عليه .

- لينا (بضجر) : ألن تتوقف عن مزاحك !

- تركي : فعلاً أين جياد .. !

كنت وقتها قد خرجت من مكتبي إلى حديقة الجامعة ..تحديداً عندما بدأ المطر بالهطول أو بدأ المطر بالبكاء ، منذ صغري أقاطع كل الأحداث ، واهرب بي للوقوف تحت المطر .. كطفلٍ صغير لا يراه أحد ..امتزجت الأرض الخضراء مع الأزهار التي تزين حواف الحديقة برائحة الطين الشهية والدسمة .. رائحة الذكريات الهشة والألحان المتراقصة في ذاكرتي .. ياهه ! ، شكرًا للذي منحني قدرة أن أشعر بما أشعر به الآن .. تمنيت وقتها لو يقف الزمن وأبقى ساكنًا هنا صنمًا إلا من الإحساس ، مبلل الشعر تحت المطر .. حتى البرد الذي كان يقرفصني ما عدتُ أحسه ..إن شعوري الآن فوق كل شعور ، يستحضرني السياب بأنشودة المطر .. أرددها بتمتمات هادئة " تثاءب المساء والغيوم ما تزال ، تسحُ ما تسحُ من دموعها الثقال .. مطر مطر مطر ، أتعلمين أي حزنٍ يبعث المطر ، وكيف تنشج الأضواء إذا انهمر ، وكيف يشعر الوحيد فيه بالضياع .."

فتحت حدقتا عيني باتساع العالم كله لأرى أمامي شاباً أسود الشعر يجلس على مصطبة ورائها نخلة شماء شهباء ، رأيت البلل يخرج من عينيه لا من السماء .. لم أشعر بالماء ينهمر من السماء .. للحظة .. ..كأنني أعرفه ! كأنه غارق !

اقتربت بخطواتٍ كهفة النسيم لا يكاد يحسها .. لأتأكد إن كان نفسه الذي في بالي ! فلم يبدو منه شيئًا لأنه كان مطأطأً برأسه ومحدودبًا بأسى ..

- جياد : عفوًا يا .. هل تبكي!

رفع رأسه ومال الماء من شعره المفلفل يداعبه ثم سقط على سترته ميتًا ، رفع رأسه للسماء ومطر الغمامة البخارية في بؤبؤه يتساقط ليفجع قلبي ! .. من .. ساري! ، كيف لك أن تبكي وأنا في نشوة الهيام بالمطر ! ..كيف للعالم أن يبكي ساري ! الأقرب لي من الأخ والأقرب من أن يكون لي أخا! وضعت يدي على كتفه النحيل وخاطبته بصوت منخفض .

- جياد : ما بك يا صديقي !

- ساري (بنبرة متقطعة وباكية): جياد لا أريد أن أراك .. كل مشاكلي بسببك أنت .

- جياد : بسببي أنا !

- ساري : ابتعد عني .. ألا تفهم!

- جياد : أتكرهني إلى هذه الدرجة ! لما لا تتوقف عن البكاء فأنت رجلٌ قوي وتركب معي بسيارتي لنذهب إلى المقهى الذي تحبه وأفهمك أكثر ؟ ها ما رأيك.

- ساري : يا إلهي كم تحاول أن تكون طبيعيًا ! أخرج على حقيقتك يا ذا الوجهين.. أنت تريد أن يشمت بي العالم ..ليشتوا عليك ! أنت لست صديق أنت منافق معلومٌ نفاقه ! دعني وشأني .

هممتُ باللحاق بك بعد أن فررت لو لم تستوقفني لينا التي جاءت في غير وقتها لتعطيني بعض الأوراق ، تعسًا لهذا الحظ !

فررت مني كالوميض ، و كأنك تود ذلك منذ وقت طويل ، تود أن تنتزع كل الماضي الذي ربطك بي .. انصرفتَ مسرعًا ..

.. وكنت أعرف طبع ساري بعمق ، أعرف أنه عندما تجتاحه نوبة الغضب والاكتئاب هذه فإنه لا يعي شيئًا حوله ، ولا يجنح للسلم مطلقًا .. فركبت سيارتي ولحقت به كي اطمئن عليه، اشتد المطر وضاق قرص الشمس حتى تلاشى .. كان الزحام شديدًا وأصوات مزامير السيارات ورائي تصيبني بالشلل المؤقت ، كنتُ مشدودًا بشدة الشدة يا ساري ، حتى أني نسيت أني تركت بقية أعضاء الفريق يعملون في المكتب .

بعد عناء بحث طويل .. وجدتك أخيرًا عند الشاطئ ، تتلاطم أمواجه مدًا وجزرا .. المد والجزر ..ألا يوحيان إليك بشيء ! ألا يوحيان ولو قليلاً بالتضاد !

تحب الجلوس على رمال الشاطئ الصفراء بمفردك كلما ضاقت في عينيك الأرض ، تهب هاربًا حتى تكون بمفردك ، تداعب يديك العاريتين حبات الرمال ثم تقبض عليها وكأنك تخنق ذهبيتها بيديك .

لا أدري أأقترب ..أم أراقبك فاطمئن أنك لن ترمي بنفسك بعمق البحر ثم أعود ..

رأيتني لما استدرت .. وخشيتُ أن تثور مجددًا علي .

- ساري: لماذا تصر على اللحاق بي ! هل نسيت محفظتك عندي !

- جياد : لأنك لم تكن على ما يرام اليوم ولم تأتي باكرًا كعادتك للمحاضرة .. ورأيتك قبل قليل تبكي بمفردك!

- ساري : أنا لا أفهم .. أتحاول أن تقنعني أني مهم بالنسبة لك !

- جياد : ولماذا أقنعك بشيء موجود أساسًا !

- ساري: جياد يجب أن لا نبقى أصدقاء ..أنت لديك الكثير الكثير من الأصدقاء والمحبين والمعارف ، لديك شخصيتك وروحك وجمالك ..لديك المال لتستمتع به قدر ما تود ، وأنا لا أملك أي شيء سوى واقعي ونفسي .. نحن لا نتفق ، لا يجب أن نكون أصدقاء لمجرد أننا ولدنا في نفس السنة ووالدتك كانت جارة وصديقة لوالدتي ..هل تفهم !

- جياد : لدي الكثير أجل .. ولكني لا أملك ساري غيرك!

- ساري (يبكي) : تبًا ..أكره نفسي أكره تشاؤمي .

- جياد : الكثير يا صديقي من المحبين والأصدقاء والزملاء لم يكونوا قدرًا يشبه هدية كأنت ، عد إلى منزلك فأنت متعب .. سأتصل بك عند العاشرة لأطمئن عليك .

- ساري : سأعود ..لكن .. لا تتصل .

- جياد : أأزعجك ؟

- ساري : إطلاقًا ، لكني أود أن اخسر أخوتك .

- جياد : كما تريد .. لكن أتمنى أن تغير رأيك وتنظم إلينا أنا وفارس وغانم .. سنستمتع بالسفر سويًا .

- ساري : لا أريد.

- جياد : سأتكفل بتذكرتك .

- ساري :هل تشفق علي ! ومن قال إنني احتاج المال منك!

- جياد : أنت معقد ..

غادرتَ وعدتُ إلى منزلي بعد أن تأكدت أنك عدت لمنزلك ..أعلم كم كنت متفاجأً لأني لم أمانع بأن " نخسر أخوتنا" كما رغبت ، لن أفرض نفسي عليك علاوةً على ذلك لقد قررت أن أريحك مني إن كنت سببًا في مشاكلك ، مع أني أجزم أن مشكلتك كانت منك ومن طريقة فهمك للمشكلة نفسها ..ولا شأن لي بها .

لن يغيب عن بالي ذلك الفجر البارد حتى يغيب الفجر من الأرض ، ما زال صوت الأذان ينادي في أذني ، كأنه يخصني بالنداء ، وكأن أذان الفجر رنَ من مسمعي لا من فاه المؤذن ، نسيم الفجر البارد الذي لطف الأجواء ، تتطاير الأوراق من على الغصون المتكسرة برقة وعذوبة ، ويهمس لي حفيف الشجر من حولي .. لا أفهم لغة الطبيعة إلا أنني أشعر بحيويتها في فترة السحر ، الطبيعة .. كما يبدو تصلي معنا كل يومٍ عند الثالثة صباحًا ، مسجد الحي الذي كان بمثابة الملتقى الاجتماعي بين أبناء الحي هو بدوره أهم مركز مهم بيني وبينك ، هو نقطة الالتقاء والتصافي .. النقطة التي لا نستطيع الهروب منها إلى قسوة الواقع .. إنها الراحة وأم الراحة وكل الراحة .. إن المسجد .. هو الطريق إلى الحياه .

تقابلتُ أنا وفارس وغانم وتركي في المسجد عند الفجر ، إذ أننا عقدنا اتفاقًا مسبق بأن نجتمع عند هذه النقطة لنصلي الفجر جماعة ، ثم نقصد المطار ونسافر مباشرةً إلى دبي ، أسبوعين للاستجمام ...

ما إن دخلتُ المسجد حتى دارت عيني تبحث عنك من بين المصلين ، و لم تبصر سوى تركي يجلس في زاوية المسجد يقرأ القرآن ، فتراجعت ولم أقبل عليه ، و خرجت إلى فناء الجامع لعلي ألمحك قادمًا .. ولم أرى سوى ضباب وحلكة داكنة ، أكثر ما جعلني استغرب من ما حصل هو أنه ليس من عادتك أن لا تسبق المصلين برجلك إلى المسجد ، هذا ما يجعلني أغبضك كثيرًا عليه يا ساري ، أنت ملتزم وإن لم يبدو ذلك ، وفي نظري أنك محظوظ جدًا

وتستحق الاحترام الجم ، أرى نفسي كلما تقاعست عن صلاة الفجر أو العشاء تويخني تلك الجملة القصيرة التي قلتها لي يوماً ، تستعنفني بحرص تلك العبارة التي قلتها لي يوماً : " بشر المشائين"

لم أكن ملماً بالدين كثيراً فلم أفهم ما قلته مع أنني "الذكي" كما ترى ، فعدت للبحث عن معنى هذه العبارة التي أثرت فيني وأعطتني طاقة الحرص على عدم تفويت الصلاة والتخطي للمسجد من أجلها ، رجعت إليها لأكتشف أنها من نص حديث نبوي للرسول صلى الله عليه وسلم " بشر المشائين بالظلمات بالنور التام يوم القيامة " ومذ ذلك اليوم وإلى الآن و أنا لم أفوت فرضاً في المسجد إلا لعارض .. لقد قررت أن أكون من المشائين ، بسببك يا ساري !

وأنا أصلي ، سمعت صوت باب المسجد يفتح فأحسست أنك قد أتيت .. بريهاتٍ مرت حتى انقضت الصلاة ، تحولقت في الوجوه كي ابحث عنك مجدداً ، ها أنت ذا على الطرف ، ألمح سواد هالتيك من بعيد .. يبدو أنك قد قضيت وقتاً بديعاً في السهر ! كنت تستغفر بأصابعك ، أقبلت نحوك ، لكنني ..خشيت كثيراً من ردة فعلك ولأول مرة ، ليس ضعفاً أمامك ، وإنما كان نتاج ما قلته لي عند الشاطئ " يجب أن لا تستمر أخوتنا " .

- جياد : ساري ، لما وصلت متأخراً اليوم!

- ساري : لا شأن لك .

- جياد : هل ستبقى تعاملني بهذه الديكتاتورية !

- ساري : أرجو لك أن تستمتع مع أصدقائك في دبي ، إنها فرصة لترتاح مني أسبوعين .

- جياد: هففف ، ليتك تنازلت عن كبريائك وانضممت معنا .

- ساري : لا !

- تركي : جياد لقد صعدنا إلى السيارة ، ألحق بسرعة بنا .

- جياد (لتركي) : حسنًا يا شباب .

- جياد (لساري) : عزيزي ساري اهتم بنفسك ، سنبقى على تواصل إن شئت .

- ساري : يجب أن لا تستمر أخوتنا .

- جياد : لا تقلق لم أنس ما قلته ، لك ذلك ..أخوتنا لن تستمر لكن لا مانع أن نصير زملاء نكتفي بالاطمئنان على حال بعضنا البعض .

- ساري : وداعًا .

تظن أيها العنجهي ساري أنني لا أنزعج من ردود أفعالك المزاجية والمتكدسة باللوم بلا مدعاةٍ للوم علي هذه ، بلى إنها تمزقني من الداخل وصبري عليها ليس رضا عن معاملتك اللا تبريرية لشخصي ، لكنني أتحامل كثيرًا ، أتغاظى مرارًا ..أريدك أن تتغير ، لا أن تكرهني أكثر! فرصة غنيمة أن أغيب عن أنظارك مدة كهذه إنها لا تتكرر دائمًا .. سأرى كيف هي الحياة من دوني عندك ! هل من السهل أن نخسر أخوتنا كما تخال !

أشرقت الشمس في عينيك ، تحديقة أمل وألم ، لطخة ضوء وظل يسطع على وجهك .. طارت الطائرة ، تحاول لمس قرص الشمس .. بلا نفع .. وأشرقت الأرض بنور ربها!

(في المطار) :

- الموظفة : تفضل ، موعد إقلاع الرحلة رقم مئة وثلاثة بعد نصف ساعة من الآن .. طاب وقتكم .

- جياد : شكرًا يا آنسة .. جيد لدينا متسع .

- غانم : يا شباب لنذهب لأحد المقاهي القريبة من صالة الانتظار ، احتاج جرعة كبيرة من الكافيين .

- تركي : لا بأس ، أنا أيضًا ستخفف القهوة من صداع ركوب الطائرة.

القهوة ليست مجرد مشروب نشغف به ، ليست أساسية ..إلا أنها مهمة حتى النخاع..والسبب يعود لكونها الرابط المشترك بيني وبين جُل أصدقائي ، فرغم اختلاف أذواقنا نحن نتفق على هوس القهوة .. وعلى سبيل المثال كلما التقينا اجتمعنا على القهوة، حتى وإن كنا نتباين في انتقاء نوعيتها .. القهوة تجمعنا أكثر من أي شيء .

أنا مثلاً لا أقبل ضيافة بدون قهوة ، ولا استطيع أن أجلس في المكتب ساعات طوال بلا فنجانٍ بالقدر الأدنى منها ..فارس يشترط أن يقابلني مع قهوة ، والكل نفس الشيء مثله ، تفاصيل دقيقة أحيانًا .. تبدو روتينية بحدة ، غير أنها تصنع ذكرى لا تنسى عندما ننفصل عن الأشخاص الذين ارتبطنا معهم بهذه التفاصيل ..

حتى الأماكن .. قد لا تعني لنا شيئًا إذا لم تكن مرفأً اصطدمت به أمواج مشاعرنا الهائجة مع أرواح ارتحنا لها وارتاحت إلينا .. وفي ذلك إشارة هامة نستجلبها من قمة بساطة الموضوع ..

نريد أن نتغير إلى الأفضل ..فلنربط تفاصيلنا الدقيقة مع أشخاص نحبهم .. سيكون لها نكهة أخرى ، كنكهة القهوة التي اشربها الآن .

- (في المكتب) .

فدوى : صباح الخير ، هذا غريب لم يسجل أي تواجد لأي أحد من أعضاء الفريق اليوم!

لينا : بلغني أنهم مسافرون لقضاء عطلة قبل الامتحانات !

فدوى : يا إلهي لكم هذا خبر يشيظني .. أود أن أجمعهم وأضعهم في الخلاط ومن ثم أطحنهم جميعاً .. من سيتكفل بمراجعة كل هذه الملفات !

لينا : لما لا نخبر مسؤول الشؤون بالعمادة ..قد يعين متطوعين ليساعدوننا في العمل ريثما يعود المستجموّن من رحلتهم .

فدوى : هيا إذن ..

الساعة التاسعة صباحاً .. ذهبت بالفعل المستشارتان إلى مسؤول الشؤون الطلابية ، إلا أنهما تفاجأتا برفضه وغضبه الشديد منهما بلا مبرر ..

- رئيس الشؤون : لقد جاءني رئيس المستشارين جياد وطلب مني إجازة له وللبقية فلم أمانع .. لأن هذا الأسبوع أسبوع مراجعة ولم يتبقى شي على الامتحانات وهم مخيرون في المجيء أو المغادرة .

فدوى :ماذا عنا نحن يا أستاذ ! هل من العدل أن نتحمل عبئنا وعبئ دراستنا وعبئ أعمال الفريق بأكمله !

- رئيس الشؤون : لا ..تستطيعان فعل كل هذه المهام إلا مهمة رئيس المستشارين فهي لجياد فقط .

في الوقت الذي عادت فيه الفتاتان إلى المبنى خائبتين ..كان ساري متوجهاً إلى مكتب جياد .. جالساً على كرسيه ..يشرب القهوة!

أحستا بأحد .. فتحتا بترويٍ الباب ..

فدوى (بانفعال) : هيهه أنت! من تظن نفسك ! كيف لك أن تدخل المكتب وهو غير مخصص لك! ناهيك عن أنك تجلس على كرسي القائد ..وتشرب القهوة ، هل قال لك أحد إن مقهى المتطفلين هنا!

- ساري :آمم من أنتِ !

- فدوى :هذا الذي سأجنَ بسببه ! أنا التي يجب أن تسأل .

- لينا : فدوى هدئي من روعك سنتفاهم معه أفضل ... أظن أنك صديق جياد صحيح ؟ لقد رأيتك سابقًا معه!

- ساري (ببرود) :أجل أنا صديقه ..

- فدوى :هذا لا يغفر لك دخولك هنا بلا أذن .

- ساري : أتراكِ ستسمحين لي بالدخول لو استأذنت ! ها ! بالطبع لا ..إذن فاصمتي ودعيني أكمل قهوتي ولا تعكري علي استمتاعي ورفاهيتي بهذا المكتب الفاخر والأنيق.

- فدوى : أيها المريض ! أنت بلا شك مريض ! والتفاهم معك لا يجدي أبدًا .

- ساري (بحدة) : احذرك ..من أن تتجاوزي حدودك ! فأنتِ لا تعرفين من أكون.

- فدوى : لا يهمني من تكون ولا يشرفني أن أعرف من أنت .

لينا (تصرخ) : كفى كفى .. ألن تتوقفا عن الشجار !

- ساري :هي التي لا تعرف كيف تتكلم مع أسيادها !

- فدوى : هههههههه هل أقف أمام الملك دون علمي!

- لينا : ساري ، أرجوك لا تؤأخذها فهي انفعالية دائمًا ..لما جئت إلى هنا .

- ساري: صديقي سافر اليوم ، ولم أذهب معه .. واختتمتُ محاضراتي كلها ..فقررت أن أتولى مهمة رئيس المستشارين اليوم بدلاً عنه .. هذه خدمة مجانية مني لأني أحبه .

- لينا : هذا رائع أخيرًا وجدنا من سيساعدنا .. من لطفك ، كنا نبحث عن متطوعين ، سيكون جياد سعيدًا جدًا عندما يعلم بذلك .

- فدوى : هراء .. لن تستطيع فقد رفض المسؤول تعين أحد مكان القائد جياد .

- ساري : وأنا ارفض كلام المسؤول ..

- فدوى : كيف تجرأ ..!

- ساري : أنا الذي سيتحمل المسؤولية اليوم وكل يوم حتى يعود جياد ، لذا أرجوك لا تخافي لن تعاقبي بسببي.

- فدوى : الذي سيعاقب هو أنت!

- ساري (بتجاهل) : لينا أعطيني لائحة الطلاب الذين سيقصدون المكتب اليوم ورقم كل واحدٍ منهم .

أي غرابة فيك يا ساري .. هل أردت أن تجرب كم كان فرش كرسي القائد مريحًا أم أردت أن تتطوع اليوم عليه! .. هل أردت أن تشعر الجميع أنك رجل زمانك ، وأن شخصيتك قيادية وأنك عزيز جدًا علي لدرجة توحي للآخرين أني قد عينتك مكاني! ..لقد بقيت حتى السابعة مساءً في الجو البارد هذا تعمل .. وتعمل ..حتى انصرفت فدوى ثم لينا ، وبقيت في مكتبي !

خذ مكتبي وخذ كل ما في مكتبي وخذ كل ما أملك ..أنت أغلى من أي شيء ، قطعًا وجزمًا لن أغالي عليك َمكتب ..الجميع لا يعرفونك ، خرج الطلاب والطالبات من عندك يمتدحونك بألسنة الثناء ! يتكلمون عن إخلاصك لي ، لحبك للخير ..ظننًا منهم أنك "فاعل خير " كما يبدو . إلا أنني الوحيد الذي يعرف لما أتيت ..أردت أن تجرب شعوري كل يوم ، هذا كل ما في الأمر.

الأغرب ..أنك لم تخبرني يومًا برغبتك في الانضمام ولو بشكل رسمي إلى الفريق ، هل تكابر! أم ماذا!

وصلنا متعبين عند الثامنة مساءً إلى الاستراحة التي أجرناها بعد توجهنا من المطار إلى منزل وائل ، وهو عضو سابق في فرقة المستشارين متخرج حاليًا ، دعانا لمنزله على الغداء .. وحيث أن لقيا الأصدقاء البعيدين إقليميًا عنا أمر مميز ، فإنه ليس غريبًا أن نطيل المكوث عنده حتى الثامنة ..

عُدت إلى الاستراحة خائر القوى ، فأخذت حمامًا دافئًا و قررت الخروج ..

- تركي : جياد ما الأمر لم لا تنظم إلينا ! أنت بمفردك مالذي يشغلك!

- جياد : لا شيء إطلاقًا ، أنا ذاهب لأتمشى قليلاً في الشارع الرئيسي.

لا أدري لما لم أشعر بأية رغبة في تبادل الضحكات والقهقهات مع أصدقائي ، ولا حتى السهر لمشاهدة الفلم معهم ، ارتديت سترتي الجلدية السوداء وخرجت إلى الممشى ..

رياح تلك الليلة كانت نشطة ، تتغزل بأمواج البحر عند الممشى فترتطم المياه بالسياج .. وتشتعل خواطري ، وأكثر خاطرة لم تغب عن ذهني في ذلك الوقت ، هي "ساري".

وجدت نفسي بلا تخطيط أتصل به ..مع أنه قال " لا تتصل بي ..يجب أن لا تستمر أخوتنا"! فلم يرد علي ، فقررت الاتصال عليه من رقم منزله .

(على الهاتف)

- سوار :مرحبًا من معي ؟

- جياد : أهلاً ..أنا جياد .

- سوار (بتوتر) : أه أهلا ، بماذا أخدمك؟

- جياد : أتصل على ساري فلا يرد ! هل يمكن أن تعطيني إياه.

- سوار : في الواقع إنه ليس في المنزل .

- جياد: امم لا بأس ..شكرًا

- سوار: عفواً!

إنها أخت ساري ! هي نفسها الفتاة التي خافت مني عند السور ! حسنًا ومالغريب في ذلك ؟ اندفعت للاتصال بنفس الرقم مرة أخرى وبكمية هائلة من اللاتخطيط .

- جياد : آسف يا آنسة ، ولكن هل يمكن أن تخبري ساري بأن يتصل بي عندما يعود؟

- سوار : لا استطيع ، سيغضب إذا علم أنك كشفت ما أخفاه عنك!

- جياد : أوبس كيف نسيت! شكرًا على آية حال .

اندلعت شراره شديدة من قلبي بعد أن أغلقت الخط .. فتاة كهذه محجورة منذ وقت طويل عن العالم ، محجورة منذ وقت طويل عن خيالي الخصب ..أتراها تستطيع أن تسيطر على قلبي الذي عجزت أي فتاة أن تحركه ! ..ليس جمودًا مني ولكنني لم أفكر يومًا بأن هناك من تستحق الحب! .. من تستحق قلبي ..أنا جياد الشخص الغير عادي ! كيف لمكالمة سريعة ورسمية كهذه أن تشغلني وتشعلني ! ولأنني حقًا لم أكن أريد أن أعطي موقفًا عاديًا أكبر من حجمه ، فقد جمحت مخيلتي المكبوتة عن التفكير بها مجددًا ..وتناسيت أمرها وعدت إلى الاستراحة في وقت متأخر مع فارس الذي جاءني ليصحبني معه لإحدى صالات الألعاب .. عدنا لنرى الجميع نائمين ، وعلب العصير الفارغة وأكياس الشيبس المنكهه مرمية هنا وهناك ..

الصبيان أمرهم فوضوضى بينهم لأقصى حد ..لو رأت أمي طريقة نومهم وبعثرة مكانهم لمنعتني من الاحتكاك بهم ! ليس مبالغة ما أقوله ، لم أنساها حينما كانت تقول لي منذ صغري " إن أحدًا إذا أراد أن يصل إليك ..فإنه يجب عليك أن يعرف أهلك وأصحابك ..هؤلاء وحدهم من يُعرفونك أمام الناس"

أمي ترى أن أصحابي هم أنا وأنا أفسر أصحابي .. وكلنا نؤثر في بعضنا ، وكلنا في بعضنا .

الفصل الثالث

(عاطفة .. من نقيع الحظ الأملط)

مع بداية المرحلة الضنكا من الامتحانات النهائية للفصل الدراسي الأول ، وبما أنها السنة الأخيرة لي فهي المصيرية ، صباح شتوي شقي ، نهضت وجلةَ عند السابعة والنصف ..تحسست بوجلٍ بارز منبه هاتفي ! لما لم يرن! لما لم يوقظني أحد ! إنه امتحان الفيزياء المهيبة اليوم ، الامتحان الذي يكفي لجعل أسناني تهتز وترتجُ وتُطبقُ وتَزلجَ وتُفتح ، لا بل إنه هذا الامتحان العزيز يؤدي هذه المهمة عوضًا عن الجو البارد ! ..

أسرعت لأغسل وجهي الذي أعياه السهر ..كما قال أخي ساخرًا عندما زار غرفتي البارحة ورأى ما رأى .." لو رآكِ نيوتن سيغتاظ ! إنكِ مثابرة أكثر منه وهذا لن يكون من دواعِ سروره"

ارتديت زي المدرسة ولم يكن لدي أي مجال لأصفف شعري بطريقة أنيقة كما في كل مرة ، فتركته مسدولاً منفوشًا بعض التعب ، ورغم أن هذا لم يسرني إلا أن همي المتوسد ثوب الرعب كان يقتصر على من سيوصلني ! فقد تفاجأتُ أنه لا أحد في المنزل ! والأعجب الأغرب الأصعب أنهم نسوني نائمة في غرفتي ! أخوتي في المدرسة وساري في الجامعة وأبي في العمل وأمي ليس لديها سيارة وهي نائمة الآن! خرجت من المنزل عند البوابة وأنا أبكي .. أحسست بالتورط وبنيات المجهول توعك ظنوني ، والوقت في ساعتي لا ينذر بلطف المعلمة ! لم يكن أمامي سوى منزل جارتنا السيدة ليليان .. إنها لديها سائقها الخاص وقد تسدي لي خدمة لن أنساها لها كعادتها .

دخلت الفيلا الضخمة والساحرة ، الفيلا التي يدهشني موهبة مصممها دهش الجلطة ، حديقتان غنّاءتان عن يمينك وعن يسارك ، ونافورة أسطورية تتزين في الوسط ، ورائحة الياسمين والجوري المسكوب بعنايةٍ عليها قطر الندى .. ربما ..خففت هذه اللوحة الجمالية شيئًا من مصيبتي المنتظرة ، طرقت الباب مرة فخرجت لي خادمة لم يخيل لي أنها خادمة قط! ثيابها شديدة النظافة والأناقة والبهاء ، ترتدي فستانَ عملياَ يشبه فستان فيكتوريا أو الأميرة لوليتا .. المنزل كلاسيكي فاخر ، رائحة الورد الإنجليزي والصندل تنبعث من حيث لا أدري وبين جنبات ما حولي ..

- سوار :مرحبًا ، هل يمكن أن أكلم السيدة ليليان ؟

- الخادمة : أجل تفضلي .. استريحي هنا سأناديها .

رأيت نعيمًا في الدنيا ! ..جلست وأنا أتأمل ! كم يملك جيراننا من المال ليضعوا كل هذه اللوحات والتحف والمزهريات في الممر فقط ! كم هي ملمة بتفاصيل الديكور السيدة ليليان لتصنع تحفةً مظهرية تساهم في علاج التوتر عندي ! .. إذ أنها عالجت توترًا نادرًا وهو الخوف من مجيء الامتحان متأخره! وأنا أتساءل من مكاني ..ارتفعت عيناي إلى أعلى الدرج المتوسط الصالة الكبيرة ، رأيت قدمان ناعمتان تنزلان بتغنجٍ فطري وتحتكان بالبساط الأحمر الملكي حتى وصلتا إلي ، تقف أمامي سيدة شقراء في غاية العذوبة واللطف ، فاتنة وأخاذه ..لم أتخيلها وأنا سابحةٌ بها إلا أنها واحدة من سيدات المجتمع الإنجليزي الراقي في العصور الوسطى ! ولأنني رأيتها من قبل فلم أنهمك بالإعجاب بها كثيرًا ..كل هذا وليس كثيرًا !

- السيدة ليليان: آهه كيف حالك يا عزيزتي ؟

- سوار : أنا بخير يا خالة ..

- السيدة ليليان : إنه لصباح فريد هذا الصباح الذي أقابل فيه فتاةً جميلةً ولطيفةً مثلك ..

– سوار :من لطفك حقًا ، في الحقيقة أنا ..أنا .. لقد استيقظت متأخرة اليوم وفوجئت أنه لا أحد في المنزل ولدي امتحان فيزياء ، أنا لا أعرف كيف سأتصرف .

- السيدة ليليان : أهذا كل ما في الأمر ؟

-سوار :أجل ..أنا خائفة جدًا .

- السيدة ليليان : اطمئني صغيرتي ، جياد الآن سينزل ليتناول الإفطار ويذهب لجامعته سأطلب منه أن يوصلك للمدرسة ..وينتهي الخوف.

- سوار :من ! جياد ! لاااااااااا أنا سأتدبر أمري .

- السيدة ليليان : ما بك ! كيف ستدبرين أمرك ! إن كنتي تجدين حرجًا في ركوبك السيارة معه فلا بأس أن أرافقكما .

- سوار :حقًا ، شكرًا جزيلاً يا أروع خالة في العالم .

- السيدة ليليان (بضحكة هادئة) : يا إلهي لكم أنتي لطيفة ..يا قطعة السكر .. لا شك أنكِ لم تتناولي الفطور بسبب قلقك ، هيا إلى المائدة .

- سوار :شكرًا يا خالة .. لا بأس لست جائعة .

- السيدة ليليان (تمسك بيدها) : هيا هيا ورائك امتحان ..وتحتاجين إلى تركيز عالي .

سحبتني من يدي بلهفة إلى الطاولة هذه الرائعة ، وأجلستني بجوارها ..كانت تقدم كل الأطعمة المتنوعة بقربي ، كانت تجيد الحضور في التفاصيل ، تتقن اللباقة في الدقائق ، حتى إنها نسيت

أنها لم تأكل شيئًا في ذات الوقت كنت منهمكة بالسعادة ، سعيدة فوق المدى بالقرب منها ، أحب ذلك الصباح الذي جمعني بها ، أحبها.

وأنا امضغ اللقمة الصغيرة رأيت شابًا وسيمًا فوق المعتاد فوق المألوف ، متجاوزًا كل حدود الفتنه .. ينزل من الدرج ذي البساط الأحمر مقبلاً نحونا .. تفاعلت دقات قلبي كلها مع ذلك المشهد .. شعرت بأنني أغص ، ولحسن حظي لم تلحظ خالتي ذلك ، حنيت برأسي متظاهرةً بأن شيئًا لا يهم ، طأطأت والحياء يتفجر من وجنتاي بخبثٍ مترجم لا وقت له .

- جياد : صباح الخير يا أمي كيف حالك ؟

- السيدة ليليان : أهلاً جياد ، تعال إلى الفطور .

- جياد : أرى أن لدينا ضيوف ؟

- السيدة ليليان : إنها سوار شقيقة صديقك ..

- جياد : امم سوار ..كيف حالك ؟

- سوار (بإحراج) : بخير .

- السيدة ليليان : بني ..سآتي معك أنا وسوار الآن في سيارتك ، لتوصلنا إلى مدرستها فلا يوجد أحد من أهلها في المنزل .

- جياد (يجلس على الطاولة متقابلاً ويشرب الشاي): من دواعي سروري ..

كنتُ دائمًا أسمع من أخي عبارات جعلتني أتصور جياد نجمًا سينمائيًا يرفض التصوير مع الأشخاص العاديين ، ويرتدي نظارة سوداء تحجبه عن الناس لفرط غروره ! كنت أتصور أنه ليس كما هو – على حقيقته – أمامي ..لقد بدى شابًا لطيفًا منسجمًا جدًا في علاقته مع والدته ، مليء بالاتساق وعدم التكلف ، ومحب للمساعدة

والعون .. كان يقابلني على الطاولة فلم استطع أن أضع في فمي حياءً منه لقمةً واحده ،وكنت ابتذل جهداً في أن انهر رغبتي التي تدفعني إلى التحديق به .. لأنني لم أتصور أن فتاة عادية ومن أسرة أقل من عادية قادرة على تحريك شعور واحد فقط من بين مشاعره ..إنهم من أسرة متفتحة على عكسنا ، لو رآني أخي الآن أجلس على طاولة طعام يجلس عليها جياد .. لحولني إلى لوحة فسيفساء معلقة في متحفٍ مهجور.. ليس لأنه سيفهمني خطأً ، ليس لأنه غيور على أخته ، ربما لأنني فضحته عند صديقه الذي أخفى عنه الكثير من الحقائق ..خجلاً بواقعه و الذي من ضمنه أنا .

- السيدة ليليان : حسنًا ، لقد شبعت .. سأذهب لأبدل ملابسي كي لا أتأخر عليكِ ..

- سوار : حسنًا .

تمنيت لو لم تقم خالتي ، تمنيت لو طلبت مني أن أحظر لها ما سترتديه ..مع جزمي بأن هذا لن يحصل ! ..ولكنها رفعت درجة حرارتي ..حاولت أن أفعل شيئًا ، أن التقط ما تبقى من وجهي الخجول وأهرب من هذه اللحظة التي أنا – فيها الآن - .. أن أغيب عن التفاعل مع الأحاسيس العشوائية .

لم يبدو على جياد أي اكتراث بي في البادئ ..وهذا ما لم استغربه ، إلا لما أن رفعت رأسي قليلاً لأراه يضع يده على خده وينظر إليَ بجرأة بلعمتني ..شرقتني .. غربتني ..حيرتني ..أسرتني .

اغتصبت والدته هذه اللحظة التي خِلتُ أنها نُسجت من حلم وردي شفاف بمجيئها .. أخذت تدعونا لركوب السيارة ..وركبت هي في الوراء معي ! ..كانت طوال الطريق تضع يديها على كتفي وتلاطفني كأني مولودتها الدمية .. تشعرني بدفئها بطريقة الافتتان ، جادة في مشاعرها ، عميقة كذوبان البحار في المحيط ، كزرقة المحيط تذوب فيه البحار جمعاء ، لن يتصور أحد أنها تجاملني الآن ..كما أنها حقًا

..لا تجاملني .. أي طفرة فرط أنوثة وثورة مشاعر تحملها هذه السيدة ، أمي التي قضيت معها عمراً باذخًا لم أحس معها ذات حلمٍ حتى .. أنني مدللة ومفضلة لها إلى هذا الحد ..سماوية ، ملائكية ، متوردة ..وردة .. فله هي ! كانت تقول لي أشياء أججت عواطفي الجامحة وأدخلتني إحساس الأمان فعالم اللطفاء ، عالم لا يفترض أن يكون وقته بقرب امتحان فيزياء! ..وكلما كانت تشرع بالكلام ، كنت اخجل لا بل ارتدي مسحةً خجلى ..وأغمق أغرق فيها .

- السيدة ليليان : أتعلمين يا ابنتي ، كنت دائمًا استعجل الأحداث ، طالما وددت أن تكبر ابنتي جودي لأراها مثلك ..أحب أن تكون ابنتي صديقتي ، صديقتي مثلك !

- سوار (بخجل) : أنا سعيدة لأني صديقتك ! مثل أمي !

- جياد : احم احم .

- السيدة ليليان : لكن الحمدلله ..فلقد كبر ولدي وهذا جميل أيضًا .. لكنه يبقى ولدي .. لن يحصل أن يكون صديقي !

- جياد : أمي اغمضي عينيك .

- السيدة ليليان : اغمضتها .

- جياد : افتحيها !

- السيدة ليليان : فتحتها !

- جياد : لقد وصلنا .

- السيدة ليليان (تضحك وسوار) : هههههه يالَ المفاجئة !

- سوار :خالتي شكرًا جزيلاً ..الساعة الآن الثامنة أنا خائفة لقد مضى على الامتحان نصف ساعة ..ماذا سأقول لهم أخشى أنهم لن يسمحوا لي بدخول القاعة .

- السيدة ليليان : ألا ترين أن الطالبات مازلنَّ يأتينَّ بعد ..لا تقلقي دعي الأمر لي ..أنا سأكلم المشرفة .

- سوار : سأسبب لك المتاعب ..

- جياد : لا تقلقي ، بمجرد رؤية المشرفات لوالدتي سيسمحنَ لك بتقديم الامتحان ،إنها معروفة في المنطقة كلها ..ستساعدك .

- سوار :حقًا ..شكرًا جزيلاً جياد .

- جياد : على الرحب والسعة ..متى ينتهي امتحانك ؟

- سوار : الساعة الحادية عشرة والنصف ..لما !

- جياد : سآتي لأخذك .. قد لا تجدين من يعيدك ..فشقيقك في الجامعة ، ووالدك مسافر !

- سوار : لا داعي لأن تتعب نفسك مرى أخرى ..

- السيدة السليان : لن يتعب نفسه ، أفضل من أن تنتظرين لفترة طويلة شقيقك .

- جياد:أسمعتِ ، سأقف في نفس المكان عند الحادية عشرة والنصف ..

كم تقدم لي خدمة عظيمة بلا مقابل يا جياد ! لقد بقيتُ ساعتين في البرد القارص البارحة عندما تأخر عليَ أخي حيث الصفوف مغلقة .. هل سخر الله لي هؤلاء الطيبين لأنجو من برد ساعتين، ومن حرمان درجات الامتحان ! ..شكرًا ثلاث .. والرابعة دق قلبي!

- المشرفة : سوار ! أو و لا ! لا يكمن هل تعرفين كم مرَ على امتحانك!

- السيدة ليليان : مرحباَ سيدة فوزية!

- المشرفة : يا للمفاجئة ، سيدة ليليان تأتي إلى المدرسة!

- السيدة ليليان : أتمنى لو تقدمي لي خدمة ، بعض الظروف منعت سوار من أن تأتي باكرًا ، هل يمكن أن توافقي على دخولها الامتحان ! إذا سمحتِ؟

- المشرفة : كيف سأردَ طلب إنسانه رائعة مثلك ، لكن .. هل هي ابنتك !

- السيدة ليليان : إنها مثل ابنتي .. شكرًا جزيلا لك .

- المشرفة : العفو إنه الواجب ، سوار هيا إلى القاعة .

- السيدة ليليان : سوار حُلي جيدا ..

دخلت القاعة بسكينةٍ المؤمنين عند الحرب الضروس دخلت ليثيبني الله فتحًا في الفيزياء ! شاهق هو السمو ، سمو روحين جميلتين لهما فضلُ علي .. روح خالتي ، وروح جياد .

(بعد الامتحان) :

- نادية : سوار ، من هذه السيدة الجميلة التي كنتِ برفقتها عند الصباح! لقد رأيتكما مع المشرفة في الباحة.

- سوار :إنها جارتنا اللطيفة ، أوصلتني وابنها اليوم للامتحان !

- نادية : لدي فضول للتعرف عليها ، أعجبتني حقيبتها الداكنة ووشاحها ذو الفرو الباهظ !

خرجت وقد تنفست الصعداء بعد امتحانٍ مر كأن لم يكن ، وكنت قد سلمتُ على نادية ونور صديقتاي الشقيتين .. وبدأت ألتفت بعيني باحثةً عن السيارة الحمراء المكشوفة ، والشديدة البروز من بين باقي السيارات ! لكنني لم أرى شيئًا يشبهها ! ..لو لا أني استبعدت أن لا يلتزم بالمواعيد شابٌ كجياد مع فتاة غريبة عنه لصفعته بتهمة عدم الانظباط .. اقتربت بعد أن شدتني زحمة مجموعة من الطالبات ، ظننت أنهن يتصارعن على إجابة خاطئة تناقلنها في امتحان اليوم ! إلا أن هذا لم يحدث ..المتطفلات القبيحات! .. كنَ مذهولات بصاحب تلك السيارة الحمراء الذي ولأول مرة يقف بقرب مدرسة ثانوية للبنات! .. اقتربت " انظرن إلى شعره الأشقر" " نظراته سرقت قلبي بسرعة البرق " " يبدو أنه ثري " " يا فلانة ألا تتفقين معي أنه يحمل شخصية رائعة " ارتفعت نيران الغضب لدي وأنا اسمع هذه الكلمات موجهه إلى جياد ! جياد الذي خرج من سيارته إلى الكافتيريا ليحضر مشروبين دافئين ! بعفوية مطلقة .. تنتبه عليه كل هؤلاء الفتيات ولا يلتفت إلى واحده منهن ! وهل من اللائق أن أغار على شخص لا تربطني به علاقة !

تزاحمت من بينهن لأقترب إلى السيارة .. وعيونهن شاخصة ! اقرأ منها استغرابهن ، من هذه الفتاه " الساندريلا " التي تحظى بركوب السيارة مع صاعقة كجياد!

- سوار :آسفة لتأخري .

- جياد : لا أبدًا لم تتأخري ..كيف كان امتحانك ؟

- سوار : بفضل الله ..كنسمة الهواء ..أين خالتي !

- جياد :أعلم أنك توقعتي أنها ستأتي ..لكن صار لديها ظرف طارئ في العمل ولم تأتي .

- سوار (بارتباك): أرجوك ، دعني أنزل إذًا .

- جياد : لا يمكن أن ادعك تنتظرين ساعتين كي يأتيك ساري ! لن ترضى والدتي علي إذا علمت بذلك .

- سوار: ولكن ..لا يمكنني ..

- جياد (بلطف) : مما كل هذا الخوف .. نحن لسنا الآن في امتحان ! اطمئني .

جعلني أركب في الأمام ، كان مؤدبًا لدرجة تطمئنني ، تشعرني أنه ليس مثل الوحوش التي لم تحشر بعد و الذين قرأت عنهم في قصص الحوادث والمآسي .. أغلق سيارته المفتحة أبوابها وشغل نظام التدفئة ،وأعطاني مشروبًا دافئنا .. وبقي الصمت يلف المسافة ويطويها ببطء وخجل .

كنت في غمرة فرحي الغير واضح ، حتى إن الخوف مات بل أُبيد لا بل انقرض بل انقضى .

مع أني برفقة شابٍ غريب ، إلا أنني هدأت وسكنت .. شعور الثقة الذي لا نمنحه لأي أحد أحسست به الآن ، كأني أعرفك منذ وقت بعيد يا جياد ، فأنا أثق بك! وأشعر بشيء غريب تجاهك .. شيء أتجاهله منذ أول صدفة ومنذ ثاني صدفة وحتى موقف اليوم والآن!

بيدَ أن ضعفاء الحيل والمآخذ أمثالي عاجزون عن فعل شيء يشبه نهاية مثالية .. واقعي يشبه واقع البطة السوداء ..حتى أخي لا يعلم أنه يعرفني ! .. تجاهلت شعوري حد الانفجار ، حد أني وددت لو أعيش ضمن نطاق هذه الأسرة .. يمتلكون قدرًا كبيرًا من السعادة والفخامة والوسامة..آهٍ لو أني شقيقة جياد ، وابنةً لوالدته ، تدللني برعاية مطلقة ، وأستمتع بالقدر الأعظم من الأزياء الجميلة والحياة الرائعة والبشر المحبون الذين يحلمون فقط بالقرب مني ويصعب عليهم نيلي ! آهٍ لو .. استيقظت على لحظة وصول السيارة لمنزلنا ،

اللحظة التي لم أرغب بها ..اللحظة التي نطق بها جياد بعد صمتٍ مفتعل ، ليراني باكية دون أن أشعر ..!

- جياد : سوار ، لقد وصلنا الآن .

- سوار : شكرًا جزيلاً لك ، أتعبتك معي اليوم ، بلغ سلامي لوالدتك .

- جياد : لا أبدًا ، لم تتعبيني ..هل يمكن أن أفهم سبب دموعك! آسف إن ضايقتك بشيء!!

- سوار :لا .. لقد تذكرت شيئًا أحزنني .. إلى اللقاء .

لقد تذكرتُ " واقعًا" أحزنني ..لقد تذكرت "حلمًا " أنكرني ..سامحني لأني تركتك في حالة استعجاب وتعجب .. كيف تنهمر الدموع بهذه السهولة ، وبلا موقف يحركها !

المواقف لا تحركنا من الخارج فقط ، مواقف صارت ذكرى من الداخل ، تبكينا بوجعٍ مضاعفٍ يا جياد ، تستنزف طاقاتنا الإيجابية ، تغرقنا فيها ، وبها نغرق .

عدتُ إلى البيت وأنا أتمنى لو يتكرر هذا الحلم الجميل كل يوم ، وكالعادة ، لم أخفِ عن والدتي أي شيء ..فقد أخبرتها بما حصل ، ولم تنزعج كما توقعت ! قلت لها " ألا يزعجك ما حصل" .. فأجابت : " يزعجني أن يفوتك الامتحان فقط ..ثم إن للضرورة أحكام " ..عندها ، اطمأننت .

في ذات الوقت كان أخي ساري في الجامعة ، بعد أن انتهى من تقديم الامتحان توجه مباشرةً إلى مكتب رئيس المستشارين الطلبة ، حيث ذلك المبنى الجميل والهادئ ، فلم يجد أحدًا في المكتب ، فقد كان جياد في طريقه إلى الجامعة بعد أن أوصلني للمنزل .. جلس بكل ترنحٍ أليف على كرسي جياد ، بعدما صنع له قهوة الموكا الساخنة بآلة القهوة الخاصة بجياد في المكتب ..وبدأ يتصفح الأوراق

الموجودة على الطاولة ، ويطلع على استشارات الطلاب !..يتصرف كما لو أنه جياد ! ويأذن لنفسه كل شيء ! حتى دخلت فدوى إلى المكتب .

- فدوى : ما هذا يا هذا ! ماذا تفعل هنا! أنت مرةً أخرى .

- ساري : لا شأن لك .

- فدوى : كيف تسمح لك بأن تأتي هنا بلا استأذان .. وماذا تفعل أوراق الاستشارات عندك ! ألا تعلم أن العمل يتسم بالخصوصية كيف تقراها !

- ساري (يلف قدمًا على قدم): هل عندكِ شيءٌ آخر ؟

- فدوى : أخرج من هنا فوراً قبل أن تضطرني للعنف .

- ساري : عنف ! عنف بالشطه أم بالتوابل ها ؟

- فدوى :سأعلمك كيف تتطفل يا خفيف الظل ! (تركي تعال فوراً)

- تركي : ما الأمر !

- فدوى : أنظر بنفسك !

- ساري: تقصد هذه الشرسة ، انظر إليَ أنا يا حباب .

- تركي : ساري ! قم من كرسي الرئيس قبل أن يراك أحد ! .. واترك هذه الأوراق وانصرف فوراً من غير مشاكل !

- ساري: وإن قلت لا !

- تركي : أنت تبحث عن المشاكل .

- ساري (يهمس في أذن تركي): لستَ رجلاً ..ولو لا أنفك المحشور في كل شيء لكنت الآن عضو في قسم الاستشارة مكانك !

اشتد النقاش بين تركي وساري ..حتى وصل إلى النزاع والتعارك باليد وبالصوت .. في الوقت الذي فزعت فيه فدوى لتنادي أحداً يخلص تركي من براثين وقبضة المجنون ساري ! والذي قاتل كأن النقمَ يقاتل معه ! فهو يظن أن تركي لم ينل هذا المنصب بعرق جبينه وأنه هو أولى منه مكانه ! إلى أن وصل جياد بسرعة بعد أن سمع صوت الاحتداد من بداية المبنى !

- فدوى :أيها القائد لحسن حظي أنني وجدتك ، هناك مشكلة كبيرة .

- جياد(يدخل للمكتب) : ماذا أرى ! توقفواااا !!

- تركي : جياد هذا المنفصم يحاول خنقي !

ساري لم يرى أمامه لا جياد ولا فدوى ، واستمر بغلظة ضرب تركي ! حتى اقترب منه جياد وصفعه صفعةً قوية أسكنت كل شيء في المكان .

- جياد : لم أكن أعلم أنك همجيٌ وأنانيٌ إلى هذه الدرجة! هل وصلت بك الحال إلى أن تنقض على صديقٍ لك كان معك العام الماضي بكل شيء!

- ساري (منحني الرأس) :أنا سأذهب ، لكن ثق أن صفعتك لم تؤلمني ! تصفع صديقك من أجل الدفاع عن صديقك .. !

- جياد (يتجاهل رحيله) : تركي هل أنت بخير ؟

- تركي : أنا بخير ..لو لم تأتي لتحول المكتب إلى شيء لا يشبه أي شيء ..!

- فدوى : جياد آسفه ولكنها ليست المرة الأولى التي يتطفل فيها على المكتب ، لقد كان يأتي إلى هنا كل يوم عندما كنت مسافراً !

- جياد : لا تقلقي ..سأتفاهم معه لاحقًا ..هيا لنباشر العمل.

لماذا تتصرف على نحوٍ مخجل يا ساري! ..لماذا تحاول أن تكون سيئًا وأنت لستَ كذلك ، لماذا لم يجبرك احترامك على المغادرة دون السعي للتشاكل الفارغ هذا ! هل يجب أن يصفعك جياد حتى تتأدب ، وتغادر مكسوراً ! ..هل كنت تنظر صفعة من أعز أصدقائك حتى تغادر! ، أنت دائمًا تراني فتاة مخجلة و بسيطة ..ألا ترى نفسك أخي المخجل البسيط _ لو افترضت أني مخجلة _ كما تدعي ! ..قد أكون بسيطة ، لكن هذا لا يعني أنني مخجلة ..المخجل أنك لا تعالج عقدك المتشعبة ، المخجل أن تبقى ناقمًا على جياد وأصدقاء جياد وأنت تحبهم .

رجل حساس وعاطفي مثلك لا يليق به سوى أن ينهل منه الآخرون الألفاظ المعسولة ، هو شلال من عسل .. هو خالص ، هو نظيف قلبًا وقالبًا .

تغير يا أخي أرجوك ..قبل أن يغيرك الواقع الذي أفشى فيك الغل والتمنع !

أخبرتني عندما عدت من المنزل بأن ثوبك الممزق وشعرك المتطاير و وجهك المتورم نتاج طبيعي للعبة لعبتها مع الأصدقاء ، هل يتعارك الأصدقاء ! وهل تظن أختك بلهاء لتصدق كل ما تستره بالمراوغات ! صدقني لم أصدق حرفًا واحدًا مما كنت تقوله ، لكن وكي لا أصنع منك رجل ثورة ! ارتديت قناع الصمت .

يوم ، يومان ، ثلاث .. أربع .. أسبوع .. لقد بدأت والدتي تستعر لتصرفاتك الغير مسؤولة ، طوال الوقت في غرفتك كسجينٍ محجور عن العالم ، لا تشارك رفقتك القليلين الذهاب للنادي ، ولم تعد

تكترث لدروسك ، كأنك يا " جونغر" زمانك تضمن الامتياز ! ..تذهب لتقدم امتحاناتك ثم تعود قبل الجميع كفتى الأدغال المصاب بعقدة من رؤية البشر ! .. كأنك تهرب من الكون إلى محور الكون ، وترى بغير إدراكٍ أن محور الكون هو "المنزل".

نزلت عند السادسة مساءً إلى الصالة بعد صياح والدتي عليك ، نزلت مبرطماً مقطب الجبين ومنفوش الشعر ، الزهد كل الزهد ينبع من تقاسيمك الكئيبة ! لترى والدتي تنتصب في الصالة غاضبةً ساخطة .. المرأة التي أنجبتك لتقارنها بجارتها !المرأة التي لم تتفق معها يوماً ، ولم تجرب أن تجرب لو تتفق معها على الأقل ..ساعة من نهار ! وقفت قبالتها وهي واقفة كخيزرانة من اللهيب ، صرخت بك .. "أهوج " !

- السيدة هنادي : إلى متى وأنا أعلم وحيطان المنزل وحدها التي تطبق ما أقوله ! أخبرني أنت ..إلى متى!

- ساري (ببرود) : إلى أن تتفطر الحيطان .. أو أختفي أنا !

- السيدة هنادي : أسمعني جيداً يا ساري ، لقد طفح الكيل طفحاً ، واحتمل السيل زبداً رابياً وضعك لا يعجبني منذ أسبوع ، كيف لشابٍ في عمر الزهور أن يحبس نفسه في غرفة فوضوية أسبوع كامل ! دروسك وأهملتها ، أصدقائك وانقطعت عنهم ، أخوتك وعاديتهم ، أنا ونسيتني !

- ساري : أسمعيني جيداً ، لا شأن لك بما يحصل معي ! لم أعد طفلاً علي تبرير كل تصرفاتي أمامك!

- السيدة هنادي : وهذه هي المشكلة ، أنك لم تعد طفلاً ! ساري لن يقدم لك أحد العون على طبقٍ من ذهب إن لم تقرر أن تساعد نفسك !

- ساري : حسنًا شكرًا على النصيحة ،أهناك شيء آخر ؟

- السيدة هنادي : أجل ، أذهب واستحم ومشط شعرك وتهندم وتعال معي ..احتاجك لترافقني إلى مكان ..قد يخرجك من حالة البؤس هذه !

- ساري : إلى أين !

- السيدة هنادي : أفعل ما قلته لك ..واترك الباقي علي!

ذهب مشدودًا هذا الذي يدعى ساري إلى غرفته ، وبعد ساعة ! عاد إلى الصالة كأنما نشط من عقال! لقد أصبح أنيقًا نظيفًا قطيفًا ! وربما تحسن مزاجه بسبب الاستحمام !

تولينا أنا وأمي ظهرك ..لعلك تتبعنا إلى الخارج .. فضلاً وليس أمرًا .

- السيدة هنادي : ساري هيا شغل سيارتك !

- سوار : أتمنى لكما رحلة سعيدة ، ساري لا تنسى أنَ الابتسامة بالمجان !

- ساري (مكشرًا) : ادخلي إلى الداخل قبل أن يراكِ أحد ..ولا تتصلي بنا أفهمتي

- السيدة هنادي : سوار اعتني بأخوتك جيدًا ..سلام .

(في الطريق)..

- ساري : لما طلبتِ مني أن أذهب معك إلى مطعم الواحة ! لستُ جائعًا !

- السيدة هنادي : هناك مفاجأة تنتظرك ..

- ساري :ماذا ماذا ..! يا سلام يهووو لنسرع إذًا !

مالذي غير تقطيبك فجأه ، أتكون متعطشًا للمفاجئات إلى هذا الحد ! أتراك جاد عندما تعترف بمزاجيتك ، أم أنك لا تخجل من طبعك المألوف أمام أمي .. إنها الوحيدة التي تدرك كيف تحرك طاقتك ! كيف تجعلك بركانًا ، وتطفئك بملء إرادتها متى شاءت ، وفي الحالتين لا خيار لك سوى أن ترضى ، أو تتحامل على نفسك ، أو تتراضى ! وحدهنَّ الأمهات القادرات على فهم الأبناء رغم أن سياط الاتهام لا توجه غالبًا إلا إليهنْ .. كثيرًا ما نتهم أمهاتنا بأنهن عاجزات عن فهمنا ، ونكتفي مراتٍ بالصمت ، ينقطع البوح وتأكل القطط ألستنا في حضرتهن .. ليس خوفًا ! لعلها طريقة لإيجاد منفذ نخرج به من صدق نظراتهن ..النظرات المحشوة بالخوف ، وبالعتب .. وبالكثير من الأمان !

رقص عقرب الثامنة .. وغنت الدقيقة الأولى لحن الترقب .. خرج ساري من السيارة قبل القبل وفتح الباب لوالدته على غير العادة !

- ساري :تفضلي يا ملكتي إلى المطعم !

- السيدة هنادي (متسعة العينين) : سبحان من أمره بعد الكاف والنون ، وإن أراد شيئًا قال له كن فيكون !

- ساري : بل قولي سبحان مغير الأحوال ! هيا هيا إلى الداخل ، لقد نفذ صبري وأنا انتظر المفاجأة !

دخلت والدتي للمطعم بصمت يثير ساري ، اتجهت إلى إحدى الطاولات ذي الأربع مقاعد ! وأجرت مكالمة هاتفية بعيدًا عن ساري ثم عادت !

ما لبثت أن غنت الثامنة إلا خمس دقائق حتى أقبلت امرأة ثلاثينية وفتاة شابة إلى السيدة هنادي وساري !

- السيدة نهى : أوه هنادي يا عزيزتي كيف حالك !

- السيدة هنادي : ما دمت أراكي أنتِ وابنتك فأنا بألف ألف خير! تفضلا بالجلوس ..

ساري راقب المشهد بلغة الاستفهام .. من هؤلاء ! وإن كانت هذه السيدة صديقة لوالدتي فأين المفاجأة ! هل تحاول أن تحمسني أمي على لا شيء!

همس لها ..

- ساري :أمي من هؤلاء ! وأين المفاجأة !

السيدة هنادي : ميَّار كيف حالك !

- ساري : أمي من هؤلاء!

- ميَّار : بخير يا خالة ..

- السيدة نهى : هل هذا هو ابنك الأكبر يا هنادي ؟

- السيدة هنادي :أجل ، ويدعى ساري ..إنه في السنة الثانية من الجامعة .

- السيدة نهى : كيف حالك يا بني ، ما شاء الله تبدو شخصًا جيدًا !!

- ساري : بخير ، وشكرًا على المجاملة .

السيدة هنادي (تقرص ساري وتتدارك!) : آهه إن ابني خفيف الظل .. (تتمتم ..احذر من التخبيص في الكلام ! وإلا).

السيدة نهى : هذا لطيف .. و واضح !

- ساري (يصرخ) : آيبي ..لماذا قرصتني !

- السيدة هنادي : بني تعال ودلني على الحمام لأغسل يدي قبل العشاء ! عن أذنكم .

خرجت السيدة هنادي من عند الأخيرتان تجر ساري من أذنه بعيداً عن الأعين ، لتنفجر به دفعة واحدة !

- السيدة هنادي (بغضب) : ما هذا ! هل تتعمد إحراجي أمام صديقتي ..ألزم الصمت وتصرف بأدب وإلا .. ستندم عندما نعود في يوم لا ينفع الندم ..تفهمني !

- ساري : أنتِ تجبرينني بعدم توضيحك لي أي شيء على ذلك ! من هذه السيدة البارعة في المجاملة التي معك ! ولماذاجاءت هي وابنتها ! وأين المفاجأة .

- السيدة هنادي : يا فالح ، لن تكتشف المفاجأة إلا في نهاية اللقاء ..هيا بسرعة لنعد إليها!

- ساري : سأتناول العشاء في طاولة بمفردي ، أنا الصبي الوحيد من بينكن!

- السيدة هنادي (بنظرة الغضب) : ساري ..أنت تعرف عقوبة من يعصي الأوامر!

- ساري :أهدئي ماما الحلوة سأفعل ما طلبتِ مني ..حتى لو كنتُ مرغماً !

(عادا إلى الطاولة) ..

- السيدة نهى : جيد أنكما لم تتأخرا!

- ميَّار : هل جئنا هنا لننظر إلى الناس وهم يلتهمون الطعام !

- ساري (يتمتم) : واو !!

- السيدة هنادي : هيا لنرى ما في القائمة من أصناف .. ماذا تحبين يا ميَّار !

- ميَّار : ارغب في " البيبسي" وال" تشيكن برجر فورن "!

- ساري : أنا أرغب في " البيبسي" وال" تشيكن برجر فورن" كذلك !.. لكن بحجم مضاعف للوحوش!

جاء النادل وطلب الطعام وقضي عليه أسرع من المتوقع ! ..بدت الجلسة مريحة جداً لساري ، خصوصاً عندما شعر أن مستوى اللتان أمامه ليس أقل من مستواه .." ماديًا " .. لذا لم يبذل أي مجهود في التكلف والتصنع أمامهما ، بل تصرف وفق سجيته المعهودة ، حتى أنه نسي أن هناك مفاجأة وعدتها له أمه !

دارت الأحاديث الطويلة بين الأطراف الأربعة ، كانت الضحكات ترتسم ، والانغماس بنشوة الحديث تتضح ! وتعرف ساري أكثر على السيدة والآنسة اللتان أمامه ، لقد تحدثت السيدة نهى عن الوقت الطويل الذي عاشت فيه مع ابنتها وزوجها في المهجر ، وكيف كان التأقلم زمن الغربة أمراً مستحيلاً .. وعن فرحتها العارمة الغامرة بعودتها لأرض الوطن .. تحدثت كأنها لا تصرف وقتًا بالحديث! ..وأردفتها السيدة هنادي أنها تمنت لو تحلُ مكانها ، وتسافر لتبتعد ولو ..سويعات.. عن مسؤولية الأم وضغط الحياة هنا ! ..وحيث أن الموضوع انتهى بعبارة صريحة من ساري ! " لا أحد يرضى بواقعه"!

في حين أن ميَّار اكتفت بالإصغاء ! ميَّار التي كان ساري متفاجأً جداً من جرأتها ! جرأتها بانتقاء قصة شعر صبيانية بحتة لشعرها الأسود الليلي ! جرأتها في اختيار ملابسها الداكنة التي تستر
معالم الأنوثة من جسدها! بنطال أسود وحذاء رياضي وسترة جلدية ذكرته بسترة ارتداها جياد ذات مرة!

غنت العاشرة كفى كفى ، لينتهي لقاء الليلة الشتوية ، بتوديعات حارة من السيدتان وتوعدات مكررة بالزيارات!

ونظرات حادة تنافسية! من ميَّار وساري! وعندما غاب طيف السيدة نهى ميَّار .. وصعد ساري والسيدة هنادي إلى السيارة..

- السيدة هنادي : ما رأيك يا عزيزي بهذا اللقاء!

- ساري :لا بأس به ، ..تذكرت .. أين المفاجأة .

- السيدة هنادي : ميَّار! منذ وقتٍ طويل وأنا أرى أنها تناسبك ! لذلك قررت أن تراها اليوم فتعجبك ..وأخطبها لك!

- ساري (بحدة) : من من! أتقصدين هذه المسترجلة التي جعلتني أغص بلقمتي إثر جرأتها في الكلام!

- السيدة هنادي: لا تكن سطحيًا ..إنها لطيفة جدًا ومظهرها لا يعني جوهرها ! صدقني إحساس الأم لا يخطئ إنني أشعر أن شخصيتك تتفق مع شخصيتها!

- سوار (يضحك بسخرية) : تتفق ! أجل أنتِ على حق ..لكن ليس في الشخصية ، بل في المظهر ! غير أن شعري أطول من شعرها ببعض السنتيمترات!

- السيدة هنادي : سأكرر مثل هذه المفاجآت ..حتى تقتنع بها وتعرفها أكثر ! كم انتظر ذلك اليوم الذي أراك فيه عريسًا!

- سوار :أمي هل تعانين من الحمى ! ماذا جرى لك ! من قال أني سأتزوج ! ومن قال أني أرغب بمفاجئاتك بعد اليوم ! ثم ألا ترين أنني ما زلتُ طالبًا لا أعمل ولا أملك أكثر من مصروف جيبي ! اندفاعيتك تغضبني!

- السيدة هنادي : حسنًا لا داعي للانفعال .. لنؤجل الموضوع الآن !

ردة فعل ساري كانت غير متوقعة أبدا ، هي بمثابة الخيبة لوالدته ، ظنت المسكينة ..أن الحب سيجعله أفضل مما هو عليه الآن ..وسيحثه للعمل والسعي الدؤوب حتى يؤسس نفسه ويهتم بدروسه ، إلا أنها تفاجأت بعدم طواعيته لها، فقررت أن تبحث عن مفاجئة أخرى ظنًا منها أن الأخرى ، ستنجم عن التماس كهربائي عنيف بدماغ ساري .. ليحدث تغييراً صاعقًا !

أمي رغم رباطة جأشها أحيانًا إلا أنها أكثر حنانًا مما نستبعد ، تحاول بشتى الوسائل القريبة والبعيدة والغير متاحة والمتاحة أن تكون أمًا ترضينا بما تفعل ! تأخذ من عمرها أجمله لتعطينا أجوده ، تخزن سعادتها المهددة لتودعها في خزائن أرواحنا عند ما يحل شتاء الروح وينفذ زاد القلب.. أمي ، مثل أي أم تغالبها نزعة الفطرة على أن تتسم بالأمومة .. أمي مثل أي أم في العالم تؤثر على نفسها ولو كان بها خصاصة ، أمي مثل أي أم في العالم ، تمنحنا _ بعد الله_ الحياه .

عاد الاثنان لأتوقع أن " ميَّار" هي كل ما يفكر به ساري الآن! ..بعد أن أخبرتني أمي بما سيحصل ، ظننت أن نفسية ساري مشروحة إلى حدود الصين ! إلا أن ظني لم يكن في محله ..

فقد زأر كالأسد في وجهي يسألني أين اختفى شاحن هاتفه ! على الأرجح ظن لفرط قلقه أنني أخفيته ، فقد اتصل به " جياد" ثلاث مرات وعندما وصل المنزل انطفئ هاتفه ! علمت حينها أن جياد هو كل يفكر به ساري الآن وليس "ميَّار" !

هل امتص هذا الأسبوع غضبك من فعلة جياد الأخيرة عندما صفعك دفاعًا عن تركي في المكتب ! وأنستك الأيام بسرعتها التي انعدمت فيها رؤيا جياد كبريائك ! أهذا كل ما يشغلك ! جياد فقط جياد جياد! هل صار إنسان لم تفلح في أن تصير مثله محور حياتك .. أيكون حجرتك التي إن خرجت منها ما قدرت إلا أن تعود إليها .!

أعطيتك شاحنتي المطابقة لشاحنتك علك تكف عن ركل الأرض وضرب رأسك بالحائط ، تتصرف هكذا أمامي كي أشفق عليك ..وأقلب المنزل رأسًا على عقب بحثًا عن شاحنك ! وأنت قادر بجدارة على جعلي " مكسورة من أجلك " ..فأسرع بتقديم الخدمة الفورية لك ، مهلاً أخي ! ألا تعد هذه موهبة !

بعد مرور أسبوع بخصام غير مبرم بين الصديقين ، أذهب أنت وصديقك بحرب أخرى يا ساري ، ها أنت ذا تتنازل .. وتتصل به !

(على الهاتف) ..

- جياد : ساري حبيبي لقد اشتقت إليك كثيرًا!

جدير بالذكر أنك بعد أمي قادر على جعل ساري يلين يا جياد ! وبأعجوبة !

- ساري: وأنا كذلك ..

- جياد : أعلم أنك منزعج مني ، لأنني أهملتك أسبوع كامل !

ودَ ساري لو يقول أنه لم ينزعج من إهمالك بقدر ما انزعج " جرحًا" من صفعتك ! جعلته يا جياد يبلع ألمه ودمعه ، جعلته يكتم أن يقول لك :" طعم الدم الذي خرج بعد الصفعة ما زال في فمي ".

- ساري: لا .. لستُ منزعجًا .

- جياد : أنزل إليَ ..أنا جالس في حديقة منزلي تعال لنشرب القهوة التي تحبها سويًا !

- ساري : تأخر الوقت ..لاحقًا .

- جياد : أنا انتظرك .. أسرع ستبرد القهوة .

وأغلق الهاتف ، وتستمر القهوة في كونها "الوسيط" الفعال السريع ل"صافية لبن" !

نزل ساري إلى الشارع واقترب من بوابة الفيلا الضخمة ، كانت مفتوحة كأنها ترحب به وكل من فيها يرحب به! شعر ساري باحترام غير موجود ! انتشى به! .. رفع رأسه ليرى جياد يبحلق فيه ويؤشر له من بعيد ليأتي .. اختناق يداهم أخي كلما مرَ على مكان رأى فيه هذا الإنسان الماثل أمامه للعتاب! يحدث نفسه ، " لم يمض على انقطاعي عنه سوى أسبوع وهو يبدو وسيمًا وفارهًا وقويًا برتبةٍ مضاعفة ، هل يزداد وجهه في كل يوم توهجًا وتفتحًا وازداد شحوبا وصداً ! هل تترى من سقف السماء عيناه الزرقاوان كل هذا البريق واللمعان الخيالي! أطعام الأثرياء يجعلهم محطة للإعجاب لأقصى درجات الانشداد! ماذا يأكل هذا الأرعن ليصير كما هو – بديع – أمامي! جياد ذي السترة الحمراء الغالية والقميص الأبيض التي تنعم به، يلف قدمًا وساق بكل رحابة ليحاول إقناعي أنه لم يكن مسرورًا

أسبوعًا كاملاً بغياب عادي مثلي ! إياك أن تقتنع يا ساري إياك ! إنه يكذب ! يحتال المراوغ.. أرمقك محاولاً استيعابك علي أخفف من شعلة العتب عليك ..أطالع فيك ما لا أراه فيني ..رغم كل ما أنت عليه ، تبقى طيبًا ، أو حنونًا يا جياد! ومع أنني من أخطأت في حقك وحق من لا ذنب له تركي إلا أنك تأتي بعد مدة لتصالحني ، لتجبرني على الامتثال لحقوق أخوتنا .. تجبرني على العودة إليك ، أقبلت إليك لتصافحني وتشد على يدي وتدعوني للجلوس بقربك ..ثم وقبل كل شيء تسكب لي القهوة ! هل أذكر أننا اختلفنا ! لقد جعلتني أشعر بإحساس أننا أصدقاء للتو ، وأننا لم نتعرف علينا إلا الآن ولم نكن نعرف بعض سابقًا لنختلف !"

- جياد (بتحدٍي) : عيناك جاحظتان ! يبدو أنك لم تتم أسبوعًا كاملاً ، هل الشوق إلي يصنع كل هذا!

- ساري (بحدة): أنت تزداد غرورًا حتى تتفجر !

- جياد : هل ترى أني مغرور ؟

- ساري : لا يهمني .

- جياد : لقد كان أسبوعًا مريرًا من غيرك ، ألتقي وجوهًا لا تحصى ولكن وجهك هو كل ما افتقدته حقيقة هذه الفترة . هل تعتقد أني سأصارحك بما شعرت به من دونك لو كنت مغرورًا ؟

لم يستطع ساري أنْ ينكر صدق ما قاله جياد ولو بكلمة ! لأنه أحس بكلامه ..والإحساس لا يكذب صاحبه ، هكذا يؤمن جياد .. في الوقت الذي فاجأه أن جياد عانى من أسبوع مرير مثله !

- ساري : أسبوع مرير مرتين لي أنا أيضًا ..

- جياد : لما ؟

- ساري : لأنني عانيت الأمرين ، الأمَر الأول أنني فقدت سندًا ، والأمَر الثاني أنك جرحتني بفعلتك الأخيرة !

- جياد (يضع يده على كتف صديقه) : آنا آسف على كل حال ، ولكن هل ما فعلته كان صحيحًا ؟

- ساري : لم أدخل المكتب أثناء سفرك إلا لأني أردت مساعدتك ، ولم أدخله آخر مرة إلا لأني ..

- جياد : لأنك ماذا ! لأنك أردت أن تجرب شعور صديقك أليس كذلك؟

- ساري :لا ، مطلقًا ..لأنني ..

- جياد (يقاطعه) : صديقي العزيز المكتب وصاحب المكتب تحت أوامرك ، أنا أرحب بك في أي وقت فيه ولا أمانع لو تنظم إلينا .. ما أغضبني ليس دخولك ، بل فقدانك السيطرة عندما غضبت وحاولت خنق تركي !

- ساري : لأنه حاول أن يتعالى علي لكونه عضو في الفريق وأنا لا !

- جياد : صدقني لا أحد يتعالى عليك ، أنت ترى ذلك لكونك لا تثق بما تملك .. أشرب قهوتك ستبرد !

- ساري(منحني الرأس): لا أريد ..

جملة جياد كانت واقعية مع الأسف لأخي لذلك أوجعته ، فعلاً إنه لا يثق بنفسه وبذاته لذلك ينشغل بتفسير ردود فعل الآخرين ، عندما لا يعجبونه بالتعالي .. يفهمك جياد يا ساري بطريقة استثنائية ، كأنه يملك عصًا سحرية تخبره بكل شيء عنك .. بداخلك ، وخارجك! بدوت يائسًا جدًا أمامه و بدى متفهمًا كعادته لحالتك ! على اعتبار أنك تعاني من حالة ! أو عقدة .

غنت الثانية عشرة في ساعة جياد ، وما زلتُ صامتًا بجانبه يطالع هو السماء والنجوم وتطالع أنت الأرض ! حتى التفت إليك وعانقك ، وكأنه يمتص غضبك بعناية فائقة وبلطفٍ رهيب.. كأنه ليس من صفعك ! كأنه يحبك كثيرًا ويخاف عليك كثيرا!

- جياد : أريدك أن تكون قويًا يا أخي ، وأريدك أن تنظم للفريق ..

- ساري : سأكون قويًا ولكن لن انظم معكم !

- جياد : كما تشاء ، إلا أنني أرحب بانضمامك في أي وقت ، وسأجعلك مساعدي الأول !

- ساري : لا يثير حماسي كلامك أبدًا !

- جياد : أما زلت غاضبًا مني !

- ساري : قهوتك أنستني ألم الدم الذي خرج بعد صفعتك ! قادر على جعلي أرضى بسهولة .

- جياد : لستُ متفرغًا لإرضاء الجميع ..فقط من يهمونني سأرضيهم إن تخاصمت معهم !

- ساري : أنا إذًا أهمك ولكن ليس كثيرًا ..فقد جعلتني انتظرك أسبوع كامل ريثما صالحتني!

- جياد : إطلاقًا ، تركتك أسبوع لتفكر فيما فعلته ..وتفهم أني أريد مصلحتك .. صافية لبن ؟

- ساري (يبتسم): صافية لبن .

- جياد : بالمناسبة أين كنت اليوم ؟

- ساري: كنت مع سيدة متغطية بمساحيق التجميل والمجاملات ..ومع فتاة شعرها أقصر من شعرك وشعري ! إلا أني أحسست براحة فوق الوصف !

- جياد : يا للهول .. حدثني فالليل طويلٌ و لا يحلو فيه إلا السهر .

وتكلم ساري ما كتمه أسبوع ..وأثرى حديثه بسرد كل ما جرى معه .. وعن رغبة أمه بالارتباط مع ميَّار .. وعن وعن .. حتى غنت الواحدة ..ليفترق الصديقان ، ويتفق الصديقان ..

عاد ساري إلى غرفته بعد أن عاهد جياد أن يهتم بما تبقى من امتحاناته ، و بعد أن فارقته النجوى ، وأخذ يصرخ بأعلى صوته كغرباء الأطوار !" أمي أروع أم في العالم ..جياد أروع صديق في العالم " !!

وأنا بدوري ، أشكركما فقد ساهمتما في التخفيف عن أخي كثيرًا ..القلوب الطيبة تصنع الحب والأمل والربيع ..من جديد .

****

الفصل الرابع

(مقحم بالضياء / الأضواء السوداء نحو الأخطاء النكراء)

سرحتُ في الصباح الندي الغير باكر بكأس الماء الشفاف الذي بيدي ، بدأت أقلبه وأطالعه بتأمل فتاك ! بمباغتة .. كمن يجيد اللعب بالماء دونما إسراف .. كمن يمتلك متسعًا من الوقت لا يدري ماذا عساه أن يفعل فيه وهو يعلم تمام العلم أنه لن يحرك العالم من مكانه .. بجموده ، من مكانه .. بكأس ماء ، حيث كل شيء ينذر بخطر البقاء والرتابة، يمرح الماء في الكأس ليدور في فلك عيني بين كل شربةٍ وأخرى .. أغنج الماء في الكأس ليمتعني .. ليدور في فلك عيني لا يهم ، المهم أن أبقى منبطحًا على الأريكة ..كما أنا مندثر ..حتى يشاء الله !

بلا ريب أن منزل متكدس بالأثاث المستعمل كمنزلنا لا تنضب فيه طاقة الاستهلاك يحتاج لأربع نساء مكافحات وخارقات وعصبيات في المقام الأول ليتشاركن في تأنيقه وترتيبه وتنظيفه،حتى وإن لم يجدي ذلك للمنزل الكثير من النفع ! فإنه يطرد المشاعر السلبية (الدمار النفسي) إزاء رؤية بيت فوضوي يؤدي دور المعبر لكل من هب ودب ! فمتى راودت زوجة أبي الثانية (ليلى) الرغبة الملحة بزيارة بيتنا المتعوس فهي بالتأكيد لن تطلب دعوة مزجلة للحضور بل ستأتي من فورها مع شياطينها الثلاث والذين أنجبتهم من بطنٍ واحدة وبفواصل زمنية لا تتعدى السنة ..يكبرون في بيتنا أكثر مما يكبرون في شقتهم ! وأنا أشيخ جزعًا وطفرًا كلما يكبرون في بيتنا !

وعلي بلا عصيان أن أصير المهرج بهلول والممثل بهجت في لحظة تفضلهم إلينا ، و إن لم يعجبهم فني المسرحي الخاص بهم والفاشل مثلهم فلن تمانع ليلى أن أتصرف بالعته الشنيع حتى ترى ثغورهم مبتسمة ، وتبين نواذجهم ويتضح تسوس أسنانهم من جنون الضحك الهستيري الذي يصيبهم وهم يرون ساري الظريف ، ساري الذي يتطوع لخدمة المجتمع بهم ، هذه التي نافست أمي هي وأولادها المغفلين ، أرقص وأغني وأجن وأغني وأرقص وأتحرك خمس حركاتٍ في دفعةٍ واحدة ..عندها فقط ستطمئن والدتهم أنهم بخير معي ، فتتركهم خمس ساعات في " بر الأمان" وترحل إلى السوق حيث بيوت الشياطين والنساء! ..هل لاحظتم ، لقد قلت "ترحل" كناية عن طيلة غيابها أو غيبوبتها في الأسواق ، ولن يرد كيدها في نحرها إلا اتصال مفاجَئ من أبي الحاضر الغائب ليصرخ في سماعة الهاتف بعد أن يسألها عن حصيلة فاتورة مشترياتها " ارجعي إلى أطفالك وإلا .." ..الآن تتعدد العبارات " وإلا جعلتك عبرة لبقية النساء" "وإلا حفرت قبركِ بنفسي " "وإلا أتيت لسحبك من ملفعك " وفي الحالات الشديدة " وإلا طلقتك!" .. وما يضير أبي لو طلقها ..وما يضير أبي لو سحبها من ملفعها ! ..وما يضير أبي لو حفر حفرة قبرها بنفسه !.. وما يضير أبي لو جعلها عبرة لباقي النساء! .. لا يضيره شيء أبدًا ، فهو رجل أولاً ، وقادر على أن يطلق ثم يتزوج كما كرر ذلك أعوامًا فاجعًا أمي ! .. إلا أنه وبالواقع الصريح ، بارع بالتهديد فاشل بالتنفيذ ، ولو خافت ليلى من جبروته وصرامة أقواله لما غابت ساعاتٍ وراحات خارج المنزل في السوق أو مع صديقات العمل ! إلا أنها أمنت العقوبة .. وهذا كل ما في الأمر .

ليلى في الرابعة والثلاثين من العمر ، امرأة حسناء الوجه إلا أنه لن يحدث أن تكون كجمال أمي ، يتهلل وجهها بابتسامة بلاستيكية كلما رأتني ..الابتسامة التي أهرب من رؤيتها ، تقول لي دائمًا إنني أشبه "زوجها " كثيرًا ، وهذا ما لا أصدقه ..فأنا لم أشبه والدي يومًا ، ويستحيل أن أشبهه ! كيف أشبهه وأنا أرفض جزمًا قطعًا أن أشرك زوجتي المستقبلية بامرأةٍ أخرى طالما أنها لم تقصر في حقي وقد أغدقتني بالمودة ، كيف أشبهه وهو في طفران السعادة والمرح والبرود .. مع أنه مضغوط جدًا بالعمل ، ومسؤول عن ثلاثة أسر وثمانية أبناء ! والدي لا يلقي للظروف بالاً .. مثلما لا يلقي للمشاعر بالاً .. والدي المنسي المنفي ..الحي !

إنها التاسعة صباحًا من يوم الجمعة ، عيد المسلمين كما يسمونه وصداع ساري كما يكون .. أرتدي "سويتر" قطني سميك رصاصي اللون يسبب لجلدي الحكة وأحل الألغاز الموجودة في الجريدة ومازال كأس الماء يتغنج لي ..أو أغنجه بنفسي ! خرجتُ قبل بطحتي هذه إلى الدكان لأشتري خبزًا أسمر وقشدة وبيض وجبن كريمي ..كل هذا لأجل أن أبي وزوجته ليلى ونجلاء سيفطرون عندنا اليوم ، وحتى أتحاشى سؤال والدتي الشرارة ..فعلت ذلك دون أن تطلب مني الذهاب ، لأني أجزم أنها ستطلب عندما تراني ممتعًا بفنون الانبطاح .

استيقظت سوار المهووسة بهندام سفرة الإفطار قبل مجيء أبي وزوجتيه ..دخلتُ المطبخ لأنتزع بيدي حبة الزيتون اللامعة من السلطة ، تضرب يدي برقة ..

- سوار : لا يحق لك أن تأكل قبل الجميع ..أعد الزيتونة إلى مكانها .

- ساري : كيف لفتاة لطيفة مثلك يا أختي أن تمنع فتىً يتضور جوعًا من زيتونة !

- سوار : حسنًا كلها ..لكن اخرج من المطبخ الآن وأحضر عشبة الريحان من الحديقة .

- ساري :الجو بارد ، لاحقًا.

- سوار : علي أن أضعها مع السلطة والشيدر أرجوك .

- ساري (يتذمر) :حسنًا حسنًا .

ما إن فتحت الباب حتى شع نور الشمس الدافئة فوق رأسي ، يداي تتزعان الريحان الزكي من أجداثه وتلتفتان للمنزل المجاور .. يبدو أن جياد لم يستيقظ حتى الآن .. من عادته أن يجلس كثيرًا في الحديقة!

خرجت والدتي من غرفة نومها بثيابٍ جديدة ! وتسريحة شعر أنيقة ! هل أفهم من تزينها أنها رسالة لوالدي مضمونها "أين كنت غافلاً عن كل هذا الجمال!" ..أم أفهم من تزينها أنها رسالة تحديٍ لليلى ونجلاء مضمونها " لن يلتفت إليكما اليوم ..أعدكما بذلك" .. وماذا يهمني أنا في المضمون .

وصل أبي وليلى ونجلاء في وقتٍ واحد ، استقبل والدي وليد بعناق العائدين من السفر .. وسلم علينا بالتقسيط ثم جلس معنا على المائدة .. كان الشجار بين الزوجات الثلاث يعمل بنظام النظرات (HD) أولا ، ثم تطور لمرحلة التراشق بالخطابات الجارحة ، ثم إلى المصارعة الحرة . ككل جُمعة تجتمع الضرائر فيها !

- السيدة هنادي (بتصنع) : زوجي أنا سعيدة لأنك ستكون في منزلك الأول الليلة !

- السيدة ليلى (بازدراء) : هه ، لا البارحة عاد متأخراً بسبب عمله ولم يقضي في الشقة وقتًا طويلاً ، سيعوضني أنا اليوم .

- السيدة هنادي : رجاءً ..أنا كلمت زوجي ! هل أنتِ زوجي!

- السيدة ليلى : أنتِ مسكينة حقًا ، لا يقضي زوجي المصون معك إلا يوم أو يومين في الأسبوع أما أنا فلا يملُ مني !

أحست والدتي بفيح رائحة الإهانة وخرجنا من نطاق الحرب السلمية إلى العداء .. شعرت بأن من واجبي أن اتصدى لهجمات ليلى سليطة اللسان وأدافع عن والدتي .

- ساري : هي يا أنتِ ، من تظنين نفسك ، والدي لا يفضل إلا والدتي لذلك كانت هي الأولى ، ثم إنه يزورك لأن شقتك الأقرب إلى عمله فلا تفرحي كثيراً ..

- السيدة هنادي :هههههه ألتقطي ما تبقى من كرامتك ..واصمتي إذًا حتى أولادي يعرفون الحقيقة !

- السيدة ليلى : هذا غير صحيح ، أترى يا توفيق ما يقوله ولدك ! يبدو أنكِ لم تحسني تربية أبنائك .

- ساري (متدخلاً مرة أخرى) : لو لم يكن والدي معنا لأدبتك بالخناجر والسيوف على كلامك هذا ! ألا ترين تصرفات أبنائك المخجلة بحق ، هل ربيتهم على أن يلعقوا أصابعهم بعد أن يأكلوا البيض ! ها .

- السيدة هنادي : بني حبيبي أثلجت صدري .. إنها مثيرة للشفقة وتعيش واقعًا أسود ملطخًا بالهجران هاربةً به عندنا !

- في ذات الوقت كان الشجار يتصاعد كالحمم البركانية .. وكان والدي صامتًا على نحو مخيف أو بلا مبالة معهودة .. أما نجلاء وسوار فهما يشاهدان مسلسلاً كوريًا عاطفيًا لا علاقة له بشجارنا ، نجلاء

رغم أنها شريكة أمي بزوجها إلا أنها صديقة أمي وسوار بذات الوقت ، في نهاية العشرينيات من عمرها ،متحفظة على أسرار منزلها وغير محبة للمشاكل .. تعاملنا على أنها شقيقتنا الكبرى .. وهي الأقرب لنا لصغر سنها .. طفلتها الرضيعة جميلة وهادئة ولا صوت لها في المنزل ! أما ليلى وابنائها ..فهو " البلاء "برمة عينه .

لم يطفئ نار الحرب إلا زأرة غليظة خشنة من والدي أتت كالمياه الدافقة لتؤدي مفعولها في إخماد النار .. وينتهي الصراع لكن ليس إلى الأبد .

في وسط هذه الصالة المكتظة بالوجوه أنا اختنق .. علي أن أخرج من المنزل فوراً فرائحة الطهو وزفرة طعام ليلى يجعلني جثة هامدة على الأريكة لا تفعل شيئًا سوى أن يسجن أنفها برائحة البصل المقلي ، تلكم الرائحة التي تجعلني أعرج إلى عالم آخر ، أو اهرب من عالمي ، أو أتظاهر بالموت ..

ولمَّا أن اخترت التظاهر بالموت لبعض الوقت هرع الصبية الأشقاء فوق بطني ورأسي يلاعبونني كدمية ميتة .. ويصنعون من صدري العريض المتسع شارع لسيارتهم النحاسية الصغيرة ، أحدهم يجر بنطالي وآخر يصرخ عند أذني أما نوبر ذي الأربع أعوام تمشط شعري لتجعلني " براتس أو باربي " ، بعد أن جعلت وجهي خارطة للمشوهين بأقلام الحُمرة المسروقة من حقيبة والدتها ، وشعري عقدٌ معقدة الفك ، لتسلبني غير قاصدةٍ رجولة المنظر ببضع لحظات وابتسامات تعجبية من طلتي ! تقول لي ببراءة " ساري استيقظ جعلتك تشبه ساندريلا !" أيتها الصغيرة المتناقضة المعجونة بالطفولة والمرح والشقاوة ! ألم تقرري أن أكونبراتس أو باربي .. مالذي حولني لسانيريلا يا فتاه!

جفلتُ من الفراش لأتفحصني في المرأة ..أنا كابوس بلا شك!

لم يقنعني أنه يجب علي مباغتة الثواني وإعادتي إلى هيكلي الطبيعي إلا نجلاء التي تمزقت ضحكًا ، وضحك الأشرار معها ! هكذا يمرُ الوقت الذي جعلني حقل تجارب للأطفال! الوقت الذي لا يتغير فيه شيء إلا عقربه !

طرق بابنا السيد وائل .. والد جياد ، وطرق قلبي خوفًا من أن يكون جياد معه ! ليشم (العالم) كله رائحة البصل النفاثة المتزحلقة من المطبخ ولا يفعل ذلك جياد ! حسنًا ، فلأهدأ قليلاً .. والده فقط على الباب .

- السيد توفيق : مرحبًا بالجار العزيز كيف حالك ؟

- السيد وائل (والد جياد) : أنا بخير يا صاحبي ..

- السيد توفيق : تفضل لتشاركنا في الغداء .

- السيد وائل : لا اعتبرني أكلت معكم ..فزوجتي ستغضب إذا لم ترني على المائدة .

- ساري : عمي هل هناك شيء ؟

- السيد وائل : في الواقع أنت تعلم أن عطلة الربيع فرصة لجتماع الجيران والأهل ، لقد قررت أنا والمدام أن نحجز استراحة فاخرة في المنطقة الساحلية وندعوكم معنا لمدة يومين هناك .

- السيد توفيق : يا أخي أرفع لك وللمدام قبعة الاحترام على هذه الفكرة الرائعة .. سنستمتع كثيراً لما لا .

- السيد وائل : سنخرج بثلاث سيارات غدًا بعد صلاة الفجر فالطريق طويلة تستغرق ساعتين تقريباً ، لا تنسوا إحضار ملابس إضافية سميكة .

صرخ في داخلي صوتٌ ..صرخ يروح مهرولاً إلى السيد وائل على فكرته المشؤومة هذه ، وصرخ يروح غاضبًا لأبي الذي طار إعجابًا بفكرته .. ألم أقل له مرارًا إنهم مختلفون عنا ! ألا يجب أن يتوقف عن ربط سعادتنا بمشاركاتهم .

- ساري : لن آتي معكم يا أبي !

- السيد توفيق : ستأتي بالإقسار يا بني .. فلا تتعب نفسك .

في نهاية فجر الجمعة ، استيقظت النسوة الثلاث في منزلنا قبل صياح الديك ، هرعنَ وبكل حماسٍ أصلي لإيقاظ جميع من في المنزل .. الويل لهن .. يومئن بأغنيات الفرح قبل الصباح !

دخلت والدتي اللطيفة جدًا جدًا إلى غرفتي وفتحت كل المصابيح وسحبت البطانية بكل ما أوتيت من جبروت وفتحت النوافذ التي يطلع منها نسيمٌ قارصٌ للغاية .. ثم صرخت في أذني .." ساري كفاك نومًا ! " وكيف يجرأ النوم أن يبقى وقد جعلتِه يتبرأ مني ثلاثًا !

نهضت من فوري برغبةٍ فاترة ، وعينان تخادعان النور إلى مغسلة الحمام ..بدأت أدعك وجهي لتختفي تورمات النوم .. شرعتُ استحم لعل الكسل يهرب بعيدًا عني .. إلى الجبال البعيدة بعيدًا عني .. بعي.. يا إلهي هل نمت على المغسلة ! في حين أن أسرة جياد تنتظرنا في الخارج .. بكل أناقة ونشاط ونظامية !

- السيدة ليليان : كيف حالكنَ جميعًا .. يبدو أنكم تأخرتم في الأستيقاظ للرحلة !

- السيدة ليلى : بخير ولله الفضل ، السبب يكمن في تجهيز أبنائنا وإيقاظهم .

- السيدة هنادي : مضت عشر دقائق وساري لم يخرج بعد! سوار أذهبي وناديه على الفور !

دخلت سوار المنزل لتراني قبالتها وقد ارتديت ثوبي الكحلي الجديد ، الذي احتفظ به منذ سنة دون أن يمس جلدي .. إنه أرقى ما لدي ..لا أدري لما رغبت بارتدائه تحديداً اليوم !

- سوار : واو! أخي تبدو أنيقًا جدًا بهذا الثوب و" الغترة" ..هيا بسرعة الجميع ينتظرونك !

- ساري (بصوت عالي) :مرحبًا يا جماعة ..أعلم أن الرحلة تتوقف علي لكن ماذا أفعل جلستُ مدة أبحث عن " العقال" .

- السيدة ليليان : لا بأس يا ساري المهم أنك وصلت .

- السيد وائل : توفيق أمشي بسيارتك وراءنا كي لا تضيع الطريق .

- جياد : ساري لما لا تركب بسيارتنا !

- سوار :أخي لا يوجد متسع أذهب مع جياد .

تحركنا بثلاث سيارات معبأه بنهمٍ بالغ بالمخلوقات البشرية والمتاع ، كانت أسرة جياد بالمقدمة ، وعائلتي بالسيارة التي تليها ..بينما السيارة الثالثة والتي يقودها جياد فقد ركبت معه وفي الوراء نجلاء وابنتها ووليد .

ساعتين بدأناهما بالحديث المتكاثر والنقاشات الحادة في السياسة والرياضة والاقتصاد والموضة حتى وصلنا بقرب استراحة كبيرة تحوي محطة وقود ومطعم ومصلى صغير ..

- السيد توفيق :يا جماعة سننزل في الاستراحة لنرتاح قليلاً .. الأمهات انتبهن على أطفالكن ..بعد نصف ساعة الجميع بالسيارة ..مفهوم .

كانت والدتي مشغولة بالأحاديث مع السيدة ليليان .. فلم تلتفت إلى سوار ، والتي بانَ عليها الضجر لأنه لا توجد واحدة قريبة من سنها تتحدث معها ، وأنا بالتأكيد لم اكترث لها .. وذهبتُ إلى المصلى لأصلي صلاة الضحى في وقت كان الجميع في المطعم يتناولون فطورهم ..

جياد كان واقفًا عند محطة الوقود ..متكأً على الجدار والسماعات في أذنيه تتامان ..على الأرجح كان ينتظرني لنتناول الفطور معًا ..

- السيدة ليليان : يا إلهي لقد نسيت مناديل جودي في السيارة ، سأذهب وأحضرها .

- السيدة هنادي : أبقي جالسة ..سوار أذهبي أنتِ وأحضريها .

- سوار :حاضره .

- السيدة ليليان : شكرًا لكِ يا ابنتي .

حين جاءت أختي بقرب السيارات ! رأت جياد واقفًا هناك ! وهذا ما جعلها تتراجع خطوات.. خشيت أن يفهم أنها تسرق شيئًا من سيارتهم في حين أنه لا أحد يراها ! ألم اقل لكم كم هي بسيطة ! .. تتقدم خطوة وتتراجع ثلاث ..

- سوار (لنفسها): ما هذه الورطة ، جياد عند المحطة ..أييُ مصيبة (متوجهه إلى سيارة والده) تشجعي سوار .. واقتربي وليحدث ما يحدث ..

اقتربت سوار لتفتح الصندوق ولكنه كان موصدًا ! فالتفت لها جياد !

- جياد : هل تودين أن افتحه لك ؟

- سوار : أجل ..

بدأت تبحث بارتباكٍ ملاحظ عن حقيبة مستلزمات جودي فلم تجدها في الصندوق ! فتورطت أكثر ..لأنها شعرت أن جياد يراقبها ، ولكن في الحقيقة كان يحاول أن يفهم هل أضاعت شيئًا ما !

- جياد : عما تبحثين ؟

- سوار :اءء اءء عن حقيبة أختك جودي .

- جياد : حسنًا إنها ليست في الصندوق بل تحت مقعد والدتي ..تفضلي .

- سوار : شكرا جزيلاً ..

سوار لم تستطع أن ترفع عينيها لترى أمامها صديقي ..المأزق (على اعتبار أن موقف بسيط كهذا مأزق) ..جعلها تتلثم بالرسميات وتعطيه ظهرها مغادرة بأسرع وقت .

وشعور غريب لا يستطيع جياد أن يفسره كلما رأها ! قد لا يكون حبًا بقدر ما هو فضول لمعرفة (شقيقة صديقه) عن كثب .. هكذا برر اهتمامه .

وصلنا الاستراحة .. عند الرابعة عصراً ، بدت
المنطقة الأقليمية الساحلية هذه معزولة عن الأسواق ، محتكة كيفما احتكاك بالطبيعة ..عن يميننا البحر الأحمر ، وعن يسارنا منتجعات سياحية واستراحات هادئة ، إذ أن هدوء المنطقة يبعث في النفس إحساس الصفاء المنشود لولا مجيئنا الذي أحدث زلزالاً فيها ..
المنطقة الساحلية دافئة ويقطنها الأجانب أو الأثرياء فقط .. ابتعدت عن الجميع لأجلس على رمال الشاطئ كما أحب .. وأغط في نومٍ عميق .

- جياد : ما هذا ..ينام عندما وصلنا ! سأذهب لأركب الدراجة المائية بمفردي .

- نجلاء : جياد أنت بارع .. أود التجريب .

- جياد : هههههههه لا أنصحك ..ستلوميني بعدها .

عند غروب الشمس راودني إحساس غريب ، يكفيه غرابة أنه مثل الأحاسيس التي تأتي دون موعد ، وقفت أمام البحر أُدَوّر أصابعي لأحوط قرص الشمس من بعيد بيدي ، كأني أحاول الإمساك به ..ولا أقدر ! مثل حلمٍ نبت من دمنا يوم كنَّاصغاراً أن نطير إلى عالم الأحلام .. عالم من الحلوى والسكاكروأنهار من الشوكولا وحدائق تثمر لعباً .. لعمري كم تشبثنا بذاك الحلم وتعلقنا
بأطياف حكاياه حتى كبرنا وأدركنا أنه ليس إلا حلم .. ونحن لا نقدر أن نطير إلى ذلك العالم . هو تماماً نفسه إحساس الآن .. مهما انصاع قرص الشمس واقترب ليسقط على شفافية البحر لا يمكن أن نمسك الضوء لا من قريب ولا من بعيد ... ما خطبي أنا أتأمل على غير عادتي كثيراً !

بقينا هناك يوماً كاملاً وقبل مغادرتنا في اليوم الثاني نهضت من نومي قبل الفجر ككل يوم لأذهب إلى مسجد الساحل .. كان موقع المسجد محور الحركة ، يحيطه سياج البحر الهائج والداكن، وتهفهف حواليه النخيل والأشجار مترنمة بالحفيف الخفيف بفعل الريح .. كل شيء في المشهد يتحرك كل شيء ينتزع من هدوء الفجر حقيقته..

دخلت المسجد وأنا أشعر بكآبة شديدة تعصف في داخلي رغم أنه لا شيء يستدعيها ، اقتربت نحو الصفوف الأوليكعادتي فلم أجد سوى الإمام واثنين من سكان هذه المنطقة .. أقبلت وسلمت عليه ، وكان من عادتي أن أحادث شيوخ المسجد حتى وإن لم أعرفهم .

- الشيخ : لم أرك من قبل يا بني ؟ هل أنت من سكان المنطقة ؟

- ساري : لا ..جئت هنا لقضاء يومين مع عائلتي والأصدقاء .

- الشيخ : هذا جيد جداً .. فليحفظ الله لك عائلتك وأصدقائك .

صوت صفير الوّنِ في قلبي فضحني إذ ألان حاجبيَّ حتى تقوسا على هيئة حزن .. فانتبه علي ولم أنتبه علي .

- الشيخ : ما بك تبدو حزينًا !

- ساري :لا شيء يا شيخ ، ولكنني في الواقع أتمنى لو لم يكن لدي صديق مثله .

- الشيخ : من تقصد ؟

- ساري : لدي صديق متفوق علي في كل شيء ومتمسك بي جداً ولكنني انهزامي وأشعر أنه لا يستحقني واليوم اجتمعت عائلتنا مع عائلته وهذا ما يزعجني فهناك فروق كبيرة بيننا وبينهم .

- الشيخ : بني ، صديقك إن كان صالحًا فلا تبالي بالفروق لأنها ستزول يوم القيامة .. وستستمر معه إلى الأبد ، وإن كنت غير قادر على أن تنسجم مع هذه الفروق فلا بأس أن تبحث عن أصدقاء آخرين يشبهونك .

(فلا بأس أن تبحث عن أصدقاء آخرين يشبهونك) (و لا بأس أن تبحث عن أصدقاء آخرين يشبهونك).. ما زالت تلك الكلمات الأخيرة تتردد في أذني منذ يومين ، ربما كان الشيخ محقًا ، صحيح أن جياد جاري قبل أن يكون صديقي لكن هذا لا يعني أنه من الضروري أن يكون صديقي ، لماذا أتمسك به أصلاً ! ولكنه لطيف و .. دع عنك العواطف يا ساري ما أهلكتك إلا العواطف .

حسنًا الإجازة طويلة وتستمر لأسبوعان من الآن ، لما لا أشغل نفسي بشيء ما أحبه ريثما أعثر على الصديق الذي يشبهني .. منذ وقت طويل وأنا أتوق لهوايتي الكتابة ولكن هل تستحضرني بعد أن أهملتها ..

ساعات طويلة في غرفتي أرمي قصاصات الورق " المسودات" دون أن أكتب شيء يستحق أن يُقرأ مع أني أرغب في الكتابة ..

ترقب .. شوق .. خاطرة .. صرخت آخ رأسي سأجن .

لن استسلم ..سأكتب يعني سأكتب .

" كفُ الغمام العنيد يصفعنا من السماء .. وتهترئ نواصينا بالماء .. لا عطشى ولا تنوي الاستجمام .. لكنها أنقى من الفناء إلى الفناء ".. ما هذا الهُراء !

لما لا أجرب أن أكتب قصيدة .. وعلى نفس الوزن في البيت الأول!

" ما من صدوقٍ وما من إخاء .. وعلى نفسي أرمي الحجارة !

وشر الأمور حيكت في الخفاء .. وإن لم يسدل الليل استراه ..

وكم يطول الليل أيام الشتاء .. وكم يفشي ساهرًا أسراره ..

.....

على نفسي سأرمي الحجارة ..

حياة الوحوش مكانها المغارة ..

دويتُ بصرختي الضجرة الثكلى ضجر النفوس أجمع " سأتوقف ..أنا فاشل" وتوقفت !

أرتمي على فراشي وأغط في ساعات نومٍ أصيلٍ ثقيل ، أميتُ الموهبة لعجز الهواية . وأنام بموهبة وهواية .

استيقظ عند التاسعة والنصف مساءا ً في الوقت الذي خلد فيه كل فرد من العائلة إلى غرفته ، أرتدي معطفي وقبعتي وأخرج لتناول

العشاء في الخارج .. ففي قانون منزلنا لا عشاء بعد التاسعة ، أبحث عن طعام آخر أو أذهب ليذلكَ الجوع .

أصعد سيارتي القنطرة وأمشي بلا تركيز ولا تركيز ..وجدتُ نفسي أوقفها عند النادي الذي يجمع كل شبان الحي ، أنزل نحوه لأراه خاليًا ، اقتحم الممرات المظلمة لأصل إلى آلة القهوة المعطلة .. تذاهلتُ من مجيئي إلى هنا من أجل القهوة .. أتسير قدماي إلى حيث لم أسر أنا أم أنها قلة التركيز الفعالة لا أكثر ولا أقل !

سمعت صوت ضربات كرة أو قطعة اسفنج معلقة للملاكمة والركل .. هناك أحد ..من الذي يأتي النادي في هذا الوقت من الليل !

اقتربت عند باب الصالة ، لأرى شابًا مكتنزًا بالعضلات قوي البنية بملامح حادة وخدش بارز على خده الأيمن ، لحظة .. أين عضلاتي منه !! بدى غامضًا جدًا في الظلام إلى حد شدّني للاقتراب منه أكثر .. أدار ظهره عني حين اقتربت !! واستمر بركل قطعة الإسفنج ؟

- ساري : يا صاح هل تتدرب على إحدى مسابقات الملاكمة أو الكارتيه في هذا الوقت المتأخر !

- هزيم : لا شأن لك .

- ساري : عضلاتك مفتولة أنت تبلي بلاءً حسنًا .

- هزيم : هل أعجبتك ؟

- ساري : كثيرًا .

- هزيم : تستطيع أخذها !

- ساري : هههههههه لا إنها لك .

- هزيم : ماذا تفعل هنا !

- ساري : كنت متوجهًا للمطعم لأني جائع فمررت بالنادي ولا أدري لماذا دخلته ! وأنت ؟

- هزيم : كنت قد تشاجرت مع بعض الصبية ودخلت النادي لأستريح ولا أدري لماذا لم استرح !

- ساري : تبدو عدوانيًا !

- هزيم : لستُ كذلك .. أنا فقط أعطي دروسًا في التأديب لمن لا يستجيب .

- ساري :لم أفهم ..أسمي ساري ، وأنا ارتاد هذا النادي دائمًا لكنني لم أرك من قبل !

- هزيم : أسمي هزيم .. وأنا لم أعد ارتاد النادي ربما مذ بدأت أنت بارتياده لذلك لم نرى بعضنا .

- ساري : هذا مقنع ..هل تأتي معي للمطعم لتناول العشاء .

الدعوة الأولى للعشاء مع هزيم كانت أول نقطة حبر على الصفحة البيضاء ، كانت البداية لعلاقتي القوية معه ، مضى من الليل دُهلٌ وأنا معه ..

لقد شعرت أنه يشبهني كثيرًا .. رغم أنه لم يشبهني في كل شيء ، إلا أننا حينما نهتم لنقاط التشابه سنقترب كثيرًا .. مثلما أننا حينما نهتم كثيرًا لنقاط الاختلاف سنبتعد كثيرًا .. أيضًا لعلي قد رسخت فكرة أن أول شخص سأتعرف عليه هو أول شخص يشبهني وسيكون صديقًا لي ! على شاكلة (ابحث عن أصدقاء آخرين يشبهونك).

أسبوعان وأنا غامر بالفرح مع هزيم ، لقد فتح عيني على أشياء لم أكن أعرفها حتى أني أصبحت أبيت خارج المنزل لفرط مكوثي معه .

الرماية ، وفنون القتال ، القوة .. الخدع والحيل ، كل ما تلقنته منه كان يشير إلي أن أخرج من حالة الضعف وقلة الثقة بالنفس ، وشعرت أني معه خرجت ولو مؤقتًا ..

حدثته عن علاقتي مع جياد وكيف عانيت لأنه لم يشبهني كما تشبهني أنت (على ما يبدو) فقال لي أنه يعرفه فهو أشهر من نارٍ على علم وبدأ يصفه بالمغرور والمتبجح و الاستعراضي ، وذكر لي أنه على عداوة سابقة معه في الجامعة قبل أن يتخرج .. وعلى كلامه (جياد هو المخطئ في حقه) ، صدقته وكأنني لا أعرف صديقي ولا أثق به .. رغم أني لم اقتنع لكنني صدقته ، كيف؟ ..لا أدري .

مازال هزيم يزيدني حقدًا ونفورًا من جياد كل يومٍ أكثر من الذي قبله ، حتى تلون جياد قُدامي بالأسود بعد أن كان يري الناس مدى بياضه ، وقال لي يومًا بعد أن اصطحبني لمكانٍ مهجور يشبه الشقة المهدمة :

- هزيم : أنوي منذ وقتٍ طويل أن أنتقم من جياد ولا أدري كيف !

- ساري : لما تفعل ذلك !!

- هزيم : إنني كما قلت لك أعرفه منذ وقت طويل .. كنا في فريق كرة القدم سويًا ، وذات مرة حاول ليَ قدمي متعمدًا !

- ساري : وإن كان ما تقوله صحيحًا هذا لا يكفي لتنتقم منه ..

- هزيم : إلى متى وأنت طيب القلب مستضعفٌ في الأرض يا ساري ، استيقظ .. ألا ترى أنه هو وفريقه المستشارين الطلبة قد حرمونا نحن من هذا المنصب ، الجميع يقدرونهم ويعطونهم الدرجات مجانًا ! أما أنا فقد تخرجت بجهدي راسبًا !!

- ساري : قد تكون محقًا ، لولا تركي لكنت الآن عضوًا في الفريق ..

- هزيم : نحن نستحق كل هذه الأُعطيات بدلاً منهم ..جياد أناني ويريد أن يكون فرعون زمانه ..

شعرتُ أن هزيم يبالغ بعض الشيء ولكن ذلك لم يحثني للدفاع عن صديقي لا أدري لماذا بل زاد من شحنتي العدائية نحوه ..قررتُ بعد ذلك أن أوافق هزيم على الانتقام بل إنني أشد رغبةً منه بالانتقام لأنه حرمني ذاتي ..حرمني تقديري لنفسي ..لقد كرهته لفرط قربي منه ..لفرط المقارنات أود أن أتحرر منها لوقتٍ طويل .. أريد أن اشتفي به أكرهه أكرهه أكرهه ولا أدري لماذا .

- ساري :هزيم أنا مستعد لأي خطة انتقام ..بل إنني من سينفذها ، عاجلاً غير آجل .

- هزيم : جيد .. أنت بطل ، كن مستعدًا إذن لكل أنواع الهجوم التي سنلقيها عليه هو تحديدًا وعلى بقية أفراد فريقه .

رغم أني أبدو متحمسًا جدًا للفكرة إلا أني أرفضها من داخلي ، حتى جاءني جياد ذات يوم إلى النادي وطلب أن يحادثني في موضوعٍ ما ..

- جياد : ساري أنا أريد أن أفهمك !

- ساري: أنت لن تفهمني أبدًا ..

- جياد : ربما سأفهمك أكثر إذا اقتربت منك أكثر .

- ساري :إلى ما تشير!

- جياد : لقد علمت أن سوار أختك من والدتك .. ولقد رأيتها صدفة ذات مرة وأعجبتني ، فحدثتُ والدي ولم يمانعا بأن أتقدم لطلب

يدها خصوصاً وأننا أثرياء ومتى أردت فالمهر والسكن موجود وبأحسن المواصفات .

صعقتُ صعقة كهربائية جيادية من ما سمعته ، من ! جياد يريد أن يتزوج أختي ! وماذا رأى فيها وهو أكثر من تتهافت عليه المعجبات ! لا شك أنه يمزح معي !

- ساري :ماذا ماذا !! تريد أختي ! أنت تمزح .

- جياد : لا أحد يمزح في مثل هذه الأمور ، ثم لما أنت متعجب ..! ما بها أختك لتخفيها وتنتقصها أمامي .

- ساري : أنا لا أنتقصها ولكنني مستغرب من أنها أعجبتك .

- جياد : وأنا مستغرب من استغرابك ! إنها خلوقة ومؤدبة ورقيقة وهذا أكثر ما يهمني ، بالإضافة إلى أنها أخت لأعز أصدقائي .

- ساري : أبحث عن غيرها ..ليس لدينا فتيات للِغاء .

- جياد : لقد أخذت موافقة والديك وفرحا جداً بي زوجاً لها ! فلم تمانع أنت ..أرجوك لا تقف في طريق مشاعري سأتي غداً أنا ووالدتي لخطبتها .

غضبتُ من جياد وثارت ثائرتي عليه لأنه لم يلتفت لإحجامي وشجْبي .. خصوصاً بعدما وافق والداي قبل أن يحددا شروطاً ، فرجلٌ كجياد جمال و أخلاق ومناصب ومال وصداقة قديمة بين العائلتين وشخصية وذكاء ..كل شيء فيه يرحب به في أي وقت ومهما رفضت وصرخت فلن يصغي لي أحد في هذا المنزل .. مثلي مثل الجدران !

ولعلَّ من قبيل الحظ السيي بالنسبة لي أن سوار تهللت بالتباشير عندما خطبها رسمياً ، وكأنها كانت تنتظر هذا اليوم منذ وقتٍ طويل ، وكأنها تعرف كل شيءٍ عنه وهي لا تعرف أي شيء عنه !

أمي وأمه اللتان ذرفتا الدموع فرحًا لهذا التناسب بين عائلتين ..كيف أن الرباط القوي بين الجيران والأصدقاء لم يعد فقط كما هو ..بل تأصل إلى صهرٍ ونسب .. الشيء الذي يُريعُني لأنني أقترب من جياد وأسرة جياد ومازال جياد يقترب مني وتقترب أسرته .. هذا يعني المزيد من الحروب النفسية والمواقف المخزية بالنسبة لي !

مرَّ أسبوعان بعد أن انتهت الخِطبة وبارك الجميع لسوار وجياد إلا أنا .. مع أنه يفترض أن أكون أول من يبارك لكوني أخ لأختي التي ستتزوج صديقي ! بقيت مع هزيم يومين مغتاظًا مما حصل .. أخطط كيف انتقم من جياد ، بل إن ما حصل أرغمني على التخلص منه كي لا يقترب من أختي ولا منا .. إحساس جديد يزيدني حماساً غبياً ، حتى أني لا أفكر بالعواقب .. إلى أين تأخذ بي أمواجك يا هزيم .. إلى أين ؟..

****

الفصل الخامس

(صديق للشياطين بعض الوقت ..)

تجيء الأيام لترحل !.. ويقترب الأشخاص ليبتعدوا !.. وتدور الأرض لتزول الأرض .. وأراني كيفما أراني أفجعُ بأقرب الأشخاص إلى قلبي.
وأراني كيفما أراني أتوهج " لا شعوريًا ".. بكل المشاعر المتأججه ، وأولها الحب !
الحب الذي قلب حياتي رأسًا على عقب ..! الحبُ الذي إنسلَّ بين عروقي .
في صباح يوم الاثنين الموافق 22 / يناير / 2013 ذلك التاريخ الذي يستحيل نسيانه ، حدث ما لم يكن في الحسبان.
وللعودة إلى أول التفاصيل ، تفاصيل ما قبل الكارثة ،ثمة نقاط لا يجب أن نغفل عنها..
النقطة السوداء الأولى "هزيم".. الذي تجاوز حدود القدرة في التأثير السلبي على ساري.
النقطة الثانية "سوار"..المفجوعة مرتين ، مرةً بساري ومرة بي!
النقطة الحمراء الثالثة : الكره المتكدس أو لا ادري ماذا اسميه .. ولكن الإنسان في حالة من الحالات الفاصلة تمامًا عندما يغيب عن وعيه غضبًا أو غِيرةً أو جزعًا أو حزنًا فإنه يشكل خطرًا على البشرية جمعاء خصوصًا إذا لم يكن محاطًا بسياج منيع للتصرف بنبلٍ جَمْ كالإيمان ، ولم يكن مطوقًا بمصابيح تدور فوق رأسه لتجعله يفهم ذاته أكثر ويتخذ القرار الأمثل.. أيضًا ليس قادرًا في ذات الأزمة أن يبرر تصرفات الآخرين على الوفق الصحيح.. يجد نفسه محاصرًا

بعطبٍ مقروءٍ عليه السلام ..يجد نفسه مُشاعًا مع الأصدقاء المقنعين الغزاة أولي الرؤوس المتعفنة والممتلئة ببذور الشر!
اليوم هو أول أيام الفصل الدراسي الثاني ، الجميع خرج نشطًا من سبات الإجازة ، مثلما أن الكاتب يحتاج أحيانًا لتوقف عن الكتابة من أجل الكتابة .. فإن الطالب يحتاج أحيانًا توقف عن الدراسة من أجل الدراسة ..حتى لا تخبو شعلة المثابرة حتى تتلاشى حواجز الضجر والسأم ..وتتكاثر الأفكار وبناتها في العقل الواعي المثمر الفذ ..
خرج الجميع نشطًا هذا الصباح .. حتى الكسالى ! ربما هم الآن بحاجة إلى التوقف عن النوم من أجل النوم..
طلعتُ من منزلي عند الثامنة لأرى هزيم واقفًا عند باب منزل صديقي (الذي لم يعد كذلك) وجاري (الذي لا يستحق ذلك).. وجدته ونظارته السوداء يرتديها الوغد بعز الشتاء !..ينتظر ساري.

- جياد : هيه هزيم كيف حالك؟

- هزيم :لستُ بخير لأنني أراك.

- جياد : اوه يبدو أنني سبب رئيسي لتعكير مزاجك ! كم أنا عظيم ذي قيمة.

- هزيم : مالذي تريده بالضبط ، أنت تعلم أننا لا نطيق بعضنا حتى مجاملة!

- جياد: اسمعني جيدًا ، دع ساري وشأنه إنه ليس بحاجة لأصدقاء منافقين وأوغاد أمثالك ! وإن لم تستجب فستدفع الثمن ضعفًا غاليًا.

- ساري (وصل): جياد لا أسمح لك ، لا تهن صديقي هزيم .

أهينُ صديقك ! .. حسنًا لا بأس أن يصبح صديقك ، لا بأس أن لا أعود أنا صديقك ، ولكن الذي ألفُ بأسٍ به أن تتخذه قدوةً وأنت لا تعرفه كما هو ! تجاهلتهما وركبت سيارتي إلى الجامعة .. وفي أول

يوم لم يكن هناك الكثير منالمحاضرات فانتهيت سريعًا وتوجهت نحو المكتب ، ياه كم اشتقت لذلك المكان ! استقبلني فارس و لينا الذين وصلا قبلي بحفاوة :

- لينا : صباح الخير حضرة القائد .

- فارس : أهلاً أهلاً جياد ..لقد اشتقنا إليك ..

- جياد : مرحبًا بكما ..وأنا كذلك ، حسنًا ماذا لدينا اليوم ؟

- لينا : هناك بعض الطلبة الذين يرغبون برؤيتك.. والكثير من الشكاوى التي يجب أن تقدم على الفور بخصوص طلبات التظلم .. وعشرون رسالة استشارية.
كنتُ مشغولاً جدًا في أول يوم دراسي .. ولم أكن أفكر في ذلك الوقت سوى بالعمل ، فتح الباب فارس وقاطعني عندما بدأت استمع لأحد الطلاب..
- فارس : جياد .. هناك مشكلة كبيرة تحصل وانت في المكتب.

- جياد : فارس ألا تراني مشغولاً ، فيما بعد.
- فارس : هناك حريق يندلع في مخزن المبنى الرابع !! أي إنه بقربنا وقد يصل إلى مبنانا .. الثالث لا يفصله عن الرابع سوى ممر!

فزعت من ما سمعته وتركت الطالب والمكتب فورًا متوجهًا بكل ما أوتيت من سرعة إلى المبنى الرابع ..المبنى كان مضيئًا بأكمله بالنار .. الصرخات تتعالى وبعض الطلاب كانوا عالقين في الصفوف .. أحسستُ أني أموت دفعةً واحدة وأنا أرى اللهيب يتصاعد إلى السماء ، أصبت بالشلل إزاء المنظر والأصوات التي استمعها ، بدت النار وكأنها تلتهم كل شيء أمامها حتى تصيره رميمًا !

اقتحمتها ويدًا لم أخشى على نفسي شيئًا.. اقتحمتها لأنقذ من في الفصل والعمال العالقين في المخزن ..إلا أن تركي أمسك بيدي .ومنعني من أن أجُدَّ السير..

- تركي :هل جننتـ ! ينعدم الأوكسجين في الداخل هل تريد أن تموت!

- جياد :تركي دعني ، سيموت من لا ذنب لهم إن لم أتحرك!

- فارس :لقد أتت سيارات إطفاء الحريق والإسعاف ..افسحوا المجال.

- جياد : سأذهب إلى الداخل ريثما تخمد النار .. لحظة واحدة بين اختناق وحياة إذا لم أتدخل فيها.. قد تفصل ما بين حياة أو موت.

- تركي : لا يمكن أن تواجه النار ألا تفهم!

- فارس : لا داعي للجدال ، تركي دعه ، جياد رجلٌ شجاع ويعرف عواقب ما يفعل.

لا أذكر صدقًا شيئًا مما حصل في ذلك الوقت سوى أن الأساتذة عجزوا عن الدخول إلى الداخل وبعضهم نسي أن العمال عالقين في المخزن بعد أن أخلوا الصفوف من الطلاب .. فقد اكتفوا بإخلاء الفصول واهملوا المخزن لأن الحرارة فيه ترتفع صاعدة ..

فتحتُ الباب وإذا برجلين يذوبان كالهُلام أمامي ! انهرت تمامًا لكن .. دعوت الله أن يهبني التماسك ، ناديت عليهما وسألتهما إن كان هناك غيرهما في المخزن فنفيا وجود أحد سواهما ..أمسكت بيديهما وكسرتُ نافذة الزينة التي تحيطها نخلة في يسار المبنى .. رأيت الشمس ..أغمضت عيني .. وغططت في نومٍ عميق!

- لينا ، فارس ، الدكتور وديع ، تركي : جياد جياد جياد ! استيقظ هل تسمعنا ..!

- فارس : احظروا الماء فورًا!

بعد دلوين باردين من الماء ..فتحت عيني لأرى وجوهًا آلفها .. الوجوه نفسها التي حذرتني من مجابهة النار والوجوه نفسها المترقبة المنكوبة بي.

- لينا :هل استيقظت أخيرًا كنا قلقين عليك جدًا!

- جياد : أين العاملان!!!!

- تركي : لقد نُقلا إلى المستشفى لعلاج بعض الحروق الطفيفة .. لكن اطمئن إنهما بخير بسبب أنك الوحيد الذي كسرت زجاج نافذة الزينة ، الفرصة التي لم يلتفت لها أحد للنجاة !

الدكتور وديع : لقد اثبت شجاعه لا توصف يا جياد .. نحن جميعًا فخورون بك!

- جياد : سعيد لأن هذا الكابوس انتهى ..أييي !!

- فارس : كيف لم تنتبه هناك جروح بليغه اصابتك عندما كسرت الزجاج ، تعال معي إلى الطبيب ليعقمها ويداويها.

كان يومًا عصيبًا علي ، تم نقلي فورًا إلى أقرب مشفى من موقعي ، ورافقني فارس ولينا .. في الوقت الذي ذهب تركي ليغلق المكتب .. ويعلن مع بقية الطلبة المتطوعين حالة الإنذار خشية أن هناك حريق آخر..

عند الثامنة مساءً ..كنت مستلقيًا على فراش المشفى الأبيض .. وقد طلب الطبيب مني مبيت الليل في المشفى ، تتصل والدتي بي ، مرة ، مرتين ، دون أن تعلم أن هاتفي كان بحوزة فارس ، رد عليها للأسف واخبرها بكل ما حصل فوثبت ترتجف مرتعبةً مكسوةً بالهلع إلى المشفى وحدها فقد كان والدي مسافرًا وهذا من حسن حظي .. يكفيني قلق أمي علي !

- السيدة ليليان : مرحبًا ، هل أنتِ لينا ؟

- لينا : أجل سيدتي .. ابنك وفارس في الداخل.

(تطرق الباب بحركة يد سريعة)

- السيدة ليليان : بني حبيبي كيف حالك !! هل أنتَ بخير!

- جياد : أجل يا أمي ، فارس هل أنتَ من اخبرها ؟

- السيدة ليليان : دعكَ ممن أخبرني .. مالذي حدث بالضبط ؟

- فارس : أنا سأخبرك لأنه سيتحفظ عن ذكر الأحداث ..لقد اندلع حريقٌ كبير في المبنى الرابع المجاور لمكتبه وتحديداً من المخزن ، وتم بعد وقتٍ طويل إخلاء جميع من في المبنى إلا أنه بقي عاملان عالقان في المخزن. ولو لم يتدخل جياد ويقتحم المبنى ليكسر نافذة الزينة على يسار الممر للقي المسكينان حتفهما!

- جياد : الحمدلله أنهما نجيا هذا بفضل الله.

- السيدة ليليان (تقبض على يده): يا رباه كم أنا فخورة أن هذا ابني، مع أني لو كنت معه لمنعته..

- فارس : منعناه ولكنه عنيد.

- السيدة ليليان :سأذهب لأكلم الطبيب ، فارس أذهب إلى منزلك لترتاح أنا سأبقى بجانبه الليلة شكراً جزيلا لك.

- فارس : لا عليكِ يا خالة من واجبي البقاء معه ، اذهبي انتي وأنا سأوصله للبيت صباحًا.

- جياد : اذهبا أنتما الاثنان أنا بخير وسأنام وأخرج صباحًا..

- السيدة ليليان : بني سأذهب لأحضر لك عشاءً .. أكيد أنك لم تأكل شيئا منذ الصباح.

كم هو حانٍ خوف الأم ، حنانها الذي ينزع من مُحيَايَّ الضيق ويُغيبُ من ذاكرتي صور النار وهي أمامي تذيب الأعمدة كما لو أنها النهاية !! أمي اليوم أمامي ومعي تذيب الثلج ليطفئ لهيب قلبي كما لو أنها البداية ، كم هو لطيف بنا الله سبحانه وتعالى عندما نكون على شفا حفرة من الهلاك ونظنُ أننا لن نَحُور ، ثم ما نلبث فينجينا من الموت

المحقق ،كم مرة توقعنا أننا لن نخرج من تطويق مصيبة وخرجنا منها .. هذا أمل يولده الله في نفوسنا برحِم المعضلات.

خرج فارس من غرفتي ليرى لينا تبكي على كراسي الانتظار بمفردها .. ليرى لينا الحزينة !!

- فارس : لينا ما بكِ ، هل هذي الدموع بسبب خوفك على جياد. ولم تجب !

اقترب فارس أكثر..

- فارس : لا تقلقي القائد بخير ووالدته معه ..عودي إلى المنزل فقد تأخر الوقت ولا شك أن اهلك قلقون عليكِ الآن.

- لينا : فا .. فارس أنا..

- فارس : أنتي ؟..

- لينا : لا شيء فقط متعبة قليلاً.

- فارس : لينا هل تخفين شيئا!

- لينا : بصراحة .. لقد أتى هزيم قبل قليل .. الذي نعرف جميعًا أنه لا يتفق مع أحد ، وسألني أين غرفة جياد ،لم أجبه لأنني لا يمكن أن اسمح له بالدخول على جياد فهو يعاني ما يعاني .. فداس على قدمي حتى إلتوت وقال إنه يتمنى لو يموت بعد هذه الحادثة في المشفى اهىء.

- فارس : الخبيث لم أكن أعلم أنه حقود إلى هذا الحد .. لِما لم تنادي علي لأعلمه الرجولة هذا الغبي . أهدئي سألقنه درسًا قاسيًا عندما أراه .هل ساقكِ الآن بخير ؟

- لينا : ذهبت إلى المُضمدة وضمدتها لي وأعطتني مرهمًا .. شكرًا لك فارس ، لم استطع أن أُنادي أحدًا فقد ذهبت لأشتري طعامًا لكما ورأيته في طريقي.

- فارس : لا بأس .. هيا لنعد إلى المنزل ،دعيني أوصلكِ.
مالذي جاء بهزيم بقدمية المتعفنتان إلى المشفى .. ولماذا يوجه نحوي أطنان الأحقاد هذه حتى إنه لا يمانع أن يؤذي المقربين مني!
برفضٍ شديد من الدكتور خرجت أمي من غرفتي وقلبها لم يخرج ..
دفنتُ جسدي المنهك فوق الفراش الأبيض وألقيت برأسي على الوسادة وتدثرت موجوعًا ..بعد أن أطفأت الأضواء..
سرح ذهني بعيداً خارج نطاق ما حصل اليوم ، إلى عالم الهدوء ..
نمتُ جريحًا ، وقد نغفو أحيانًا بجرحٍ عميق ، جرحٍ لا يفهمه الناس ..
جرحٍ من أقرب الناس إلينا جرحٍ أقسى من أن يفهمه الناس ! ..
نداء الفجر من المستشفى أيقظني ، نهضت من فوري وتوضأت وقصدت مصلى المشفى..
بعد انتهاء الصلاة أخبرت الأطباء أني بخير وينتظرني دوام عند الثامنة فوافقوا مكروهين على مغادرتي..
ابتسامة وديعة استقبلتني بها أمي عند الصباح ، أنستي بها كم ضاق الأفق علي..
طلبت منها أن تسمح لي بالدوام اليوم كي استفسر عن ما حدث البارحة، وهي الأخرى وافقت بإلحاح مني.
ما إن وصلت المبنى القريب من المخزن حتى وجدتُ لافتة مكتوب عليها يمنع الاقتراب .. و وجدت رجال التحقيقات الجنائية يبحثون عن سبب الحريق ومسببه.
ذهبت لأزور رئيس عمادة الطلاب.. فطمأنته على جراحي وأخبرني أن جميع التحقيقات تشير إلى أن الحريق لم يندلع نتيجة
عطل طارىء بل بسبب شخص متعمد كما يبدو ..فتحت عيناي لأقول له وما دليل ما تقوله ، فأخبرني أنهم عثروا على ولاعة
وقطعة نايلون قماشية ووجدوا أن أحد مقابض المحركات تم

تفكيكها بإحكام !
لم يستوعب ذهني مدى إجرامية الفاعل ، ولماذا تعمد إشعال النار هنا بالضبط ، وما هدفه من كل هذا!
دخلتُ إلى حديقة الجامعة عساي أن أخفف ولو قليلاً من ضغوطي .. كم وجعٍ يعصرني وابتلعه غصة كتمان .. أمشي في الممرات لأسمع بأذني إشاعات من الكثير من الطلبة .. منهم من يقول إنه فلان ابن فلان الذي أشعل الحريق فقط لأن عداوة تربطه به ، يتهم بريئًا .. ! ومنهم من يقول إن هناك فتى قد أنقذ أرواح ستة عمال ! وفي الحقيقة أنا لم انقذ بفضل الله سوى عاملين ..خرجت لأستمع لغناء العصافير على الأغصان ، إنه اطهر للأذن وأجمل من القيل والقال.

دنيانا لا تحتاج إلى التعقيد .. نحن من نعقد الأمور بعدم تحجيمها ووضعها بالمكان الصحيح بأدمغتنا .. يضايقني إهمال ساري المتواصل لي!
لقد وصلتني العديد من الرسائل والمكالمات للاطمئنان على حالي بعد الحادث الأليم .. ولا ريب أن ساري سمع من ثلاثة على الأقل بتفاصيل ما حصل ، فالإشاعات باتت أسرع انتشارا من الحريق نفسه!
ساري .. لحظة ..ساري ..اتصلت به مرارًا ولكنه لا يجيب أين يمكن أن يكون ؟
- غانم : أراك متنعمًا بالراحة في الوقت الذي آخذ فيه محاضرة رياضيات متشعبة !
- جياد : يا لطيف يا خفيف .. أين كنت البارحة!
- غانم : يا غالي بحبكَ لا أبالي .. اهٍ ليتك تعلم كيف صار حالي!
- جياد : غانم تكلم لغةً مخلوق بشري من فضلك.

- غانم : صديقي العزيز يؤسفني ما حصل لك وللمبنى الذي تدرس به البارحة أنتم مجازون من المحاضرات حتى ينتهي العمال من أعمال الصيانة ..أليس كذاك ؟
- جياد : أجل لكن لن يصبَ ذلك في صالح إتقاننا لدراسة المواد..
- غانم : ليت الحريق صار في كليتنا وارتحنا منها أنتم محظوظون بالفعل بلا دراسة ولا كراسة !
- جياد: غانم .. يبدو أن الحمى شديدة عندك!!! ثم أني لم أعفى من دوام المكتب!
- غانم : هههههههه ما أخبار ساري ؟
- جياد : لا ادري شيئا عنه منذ أيام.
- غانم : لقد رأيته مع هزيم في النادي البارحة وكانا يتشاجران بحده!
- جياد : ساري صار مغفلاً مع احترامي له ، هو لا يعلم كيف طعن هزيم الكثير قبله.
- غانم : سمعة هزيم السيئة لا ينكرها أحد يعرفه أو سمع عنه كيف يقترب ممن يسمع عنه كلامًا قبيحًا؟
- جياد: دع الأيام تعلمه .. فلو نطقت سنينًا ودهورًا لن يفهم ما تقوله.

عند المساء وبعد أن انتهيت من أعمال المكتب ، عُدت إلى المنزل بنفسية أفضل .. أخذت حمامًا منعشًا وبدلت ثيابي وتعطرتُ بضع بخاتٍ وزخات ، ثم طرقت باب جيراننا..

- جياد : مرحبا وليد كيف حالك ؟
- وليد : أهلا جوجو .. يا بطل !
- جياد : لا تقل لي أنك سمعت بما حصل !
- وليد : لقد قرأت بالجريدة ما حصل ووجدت اسمك .تفضل تفضل..

- السيدة هنادي : أهلاً وسهلاً بجياد ..فخورين بك .
- جياد : من لطفك سيدتي ، في الواقع لقد أتيت لأقابل سوار هل يمكن أن أراها ؟
- السيدة هنادي : بالطبع .. سأناديها على الفور ..

ينبض قلبي بغرابة ..يعريني من كبريائي .. يبقيني محاصراً بالمشاعر الضخمة.. انتظرها وكأن الدقائق سنوات .. انتظرها وكأنني لن انتظر غيرها .
أقبلت منحنية الرأس يفضح احمرار وجنتيها خجلها العفوي ..مع أن هذا اللقاء لم يكن الأول أشعر وكأنني لا اعرفها إلا بعد كل لقاء .. كانت ترتدي فستاناً بسيطاً للغاية كعينيها مفعم بالأناقة عليها ، وسلسلة ناعمة بين نحريها ، مددت يدي لأصافحها ..
- جياد : ألن تسلمي علي ؟
- سوار (بعفوية) : لا أصافح الرجال الأجانب !
- جياد (يضحك بلطف): ولكني خطيبك الآن !..الواضح أني سأبقى أجنبي حتى نتزوج !
- سوار : امم
- جياد : امممم
- سوار : كح احمم احمم .
- جياد : كح احمممم احمممم .
- سوار : كيف حالك ؟
- جياد : وأخيراً !! أنا بخير ..
- سوار : لقد خفت عليك كثيراً عندما كنت بالمشفى .
- جياد : المهم أني الآن أمامك حيٌ أرزق .
- سوار : هذا يجعلني سعيدة جداً و مرتاحة .
- جياد : سوار أنا لا أريدك سوى زوجة .. ولم أرغب منذ البداية سوى أن أكون صفحة جميلة في حياتك لذلك لا بد أن نرتب الكثير من الأمور بشأن الزواج ..

- سوار : أنا مستعدة لذلك .
- جياد : أفضل أن نبقى مرتبطين ولكن أن يؤجل الزواج حتى تنتهي من دراستك الثانوية أي بعد سبع أو ست أشهر من الآن .
- سوار : ولكن هذا طويل .
- جياد : بالعكس إنه وقت متاح لنعرف بعضنا أكثر ونتفق على أشياء أخرى حتى نصل إلى حلول ترضي الطرفين .
- سوار (بحزن): كما تشاء .
أعلم أنني آذيتك بما أسمعتك يومها ، أقدر تمامًا كم هو صعب على الفتاة أن تنتظر عندما تتعلق .. كم يبدو اليوم عام .. والشهر عقدًا .. إلا أنني فعلت ذلك من أجلك ، ثقي بذلك إنها السنة الأخيرة لك وتحتاجين وقتًا طويلاً للتفرغ للدراسة وهي الأهم .. لا أريد أن تتعطل أولوياتك بسبب عاطفة ثائرة ..
غادرت المنزل بعد أن شربت القهوة عندهم .. إذ أن الزيارة لم تتعدى نصف ساعة أو أقل وهذا ما يجعل سوار تائقة كلما التقيت بها .. مع أنها لشغب الخجل والأصالة التي تقبع داخلها لا تبادر بالإفصاح عن مشاعرها إلا بعد أن اسألها ..
غادرت وقلبي شغوف جدا بأن نجتمع ذات يوم ببيتٍ واحد وتزول فواصل الجدران والأسقف بيننا .. وقلبها متورم .. تود أن تقول الكثير اقرأ ذلك من عينيها ولكن ..
- سوار : اءء جياد .
- جياد: جياد يسمعكِ تفضلي .
- سوار : أنا خائفة من أن تغير رأيك بي كلما طالت المدة .
- جياد : ما هذا الكلام ! أنا يومًا بعد يوم ازداد إعجابًا بك وبأخلاقك وبشخصيتك .. كلامك يا عزيزتي مردود !
ابتسمت ابتسامة الراحة بعد أن طمأنتها بكل ما يقلقها وانصرفت .. ابتسمت كأنها تودعني بابتسامتها ..ابتسمت لترقص الألوان على النهر .. النهر الغير موجود .ابتسمت ليغني العالم في أذني أغنية الأمان !.. الأغنية الغير موجوده !

قسوة القلوب تمنح الإنسان جرعاتٍ من الظلم المؤلمة ، الظلم ، الظلم الذي كان عنواناً لسلوكيات الكثير من البشر ... أتسائل كيف باستطاعة المرء أن يجرح ساخراً لكي يضحك جماهيره ! وكيف ينام قرير العين وبذمته مثقال ذرة ظلم لأحد !!.. الظلم كالشوكة في العين يؤذيها حتى لا يمنعها النوم !..الظلم دين ، والديّان لا يموت ، كنت أبكي بمرارة في تلك الليلة شاقاً كل احتمالات الأمل ! لقد تلقيت طعنةً خائنة حتى كادت أن ترديني قتيلاً ..أن تفتتني وتبعثرني ثم ترميني في وادٍ سحيق .. أي بشر هؤلاء لا يرحمون ! ما نملك لهم إن كان الله قد نزع الرحمة من قلوبهم فباتوا رجالاً ونساءً لا يهمهم سوى أنفسهم يركضون وراء اندفاعيتهم التي طالما كانت سبب بكسر قلب ، وجرحٍ عميق يتسمم صاحبه وجعاً كلما تداعى نسيانه ..وإن الرجل لا يبكي عبثاً .. الرجل الحقيقي لا يختار حزنه ولكنه يسيطر عليه ، الدمعة التي يبكيها رجل تقابل عشرون دمعة أو أكثر لمرأه .. وشتان ما بين دموع التماسيح ودموع المنكسرين قهراً وظلماً ودموع المنكسرين شوقاً وحنيناً ..

أنا جياد رجل الدمع ليلاً كنت أبكي ما حصل ..

في أحد الاجتماعات المهمة والتي دُعي إليها عدد كبير من الدكاترة والمحاضرين والطلبة وأعضاء المستشارين الطلبة كان قد طلب مني أن أقدم إحدى فقرات الحفل .. ولم أجد بئساً بذلك خاصة وأني رئيس المستشارين الطلبة وأحب أن أنقل مضامين ورسالات الطلبة إلى أسماع المسؤولين ، إلا أنت في ذلك اليوم أيقنت أنه لو اجتمع كل أهل الأرض على أن يضروك بشيء لم يكتبه الله لك فلن يقدروا وهذا ما حدث ..

حصل ذلك تقريباً بعد مرور أربعة أيام على الحادث .. ارتديت ثوباً مهندماً وقصدت الجامعة تحديداً قاعة الاجتماعات العامة .. حيث بدأ المؤتمر وصعدت على المنصة من فوري .. وأذكر أني قلت ما قلت .." إننا بدورنا نسهم بالتغير .. دائماً إلى الأفضل ، وإن رجوع

المثابرين إلى الوراء جريمة نكراء في حق هممهم ، وكل ما أرجوه أن نساهم نحن أعضاء فريقالاستشارة بترجمة نوعية وفعالة لكل مشاكل الطلبة الأكاديمية وغير الأكاديمية .. رجائي أن تصل أصوات الجميع دون استثناء من الطلبة والطالبات إلى المسؤولين .. حتى نتبنى المسيرة الأفضل والأفضل عنوانها الشفافية والعناية .. شكراً لحسن إصغائكم كان محدثكم جياد رئيس
القسمالاستشاري الطلابي "..
نزلتُ من على المسرح ليحل دور غيري في الحديث ، بعد أن أحسست بأني مراقب ! لم أعلم من أين يأتيني هذا الإحساس إلا أنني متيقن جداً منه .. جلست في الكراسي الأمامية مع بقية أعضاء الفريق وصدقًا لم أكن لأشعر بالراحة كأن الحاسة السادسة تستنجد بي ! ولم أكد لأتنفس جيداً إلا عندما انتهى المؤتمر ..
- فارس : كنت رائعًا وجذابًا كعادتك على المسرح يا جياد .
- جياد : شكرا حبيبي أنت ..
- فارس : ما بك ! إلى ما تلتفت ؟
- جياد (يركض) : فارس تركي اتبعاني ..
- تركي : أين نذهب !
- جياد : لقد رأيت رجلاً ملثمًا يراقبني من بعيد .. كنت أشعر منذ بداية المؤتمر بمراقبته .
- فارس : ها هو إنه يهرب !
- جياد : إنه بتوجه لموقف السيارات .. سنلحقه بالسيارة .

ركبَ سيارته وفر هاربًا !!! وبينما نحن نصعد سيارتي استطاع أن يفلت من أيادينا ويخرج بعيداً عن أسوار الجامعة .. في اليوم التالي حدث ما هو أسوأ إذ كنت في محاضرتي التي تغير مكانها .. وبعد المحاضرة خرجت إلى مبنى الاستشارةلأجري مكالمة في زاوية خالية من المبنى ومن ثم اتفاجأ أن هناك من ينقض علي ويباشر

بضربي ولكمي ومن ثم يختطف من جيبي محفظتي وكأنني قتلت له عزيزاً سقط الهاتف من يدي وهو يحاول خنقي ولولا أن حنيت قدماه ليسقط وأقبض عليه بعنف ..لكاد أن يكون سبباً في غيابي عن الحياة ،.. خرج من المكاتب تركي وفارس ولينا مفزوعين مما رأوه بعد أن وصلهم صوت العراك.. وليتهم لم يخرجوا فقد هرب وذهب فارس ليلاحقه في الوقت الذي انتفض فيه تركي ولينا لمّا أن رأوا شفاهي تزرق ..

- جياد : لقد حاول قتلي .. أريد ماء ..

- تركي : جيااااد يا إلهي لينا احضري الماء حالاً .

- لينا (معها الماء): أشرب جياد .. هل أنادي الأساتذة ؟

- جياد : لا داعي لذلك .. أنا بخير الآن قبضة يده القوية أصابتني بضغط داخلي وصعوبة في التنفس !

- تركي : احمد الله أنه لم يفلح .. ولكن لما يفعل كل هذا !..

- لينا : يا إلهي لم يعد الدوام هنا مريحاً أبداً ..

- جياد : لينا استدعي كل أعضاء الفريق على الفور وأتبعوني إلى مكتبي .

في لحظة لم أجد نفسي سوى حذراً جداً .. وباشرت عقد اجتماع مع أعضاء فريق الاستشارة بعد أن اخبرني فارس أن الملثم أفلت من يده .

(في المكتب)..

- جياد : لقد جمعتكم اليوم لأقول لكم شيئاً مهماً ، نحن هنا مسؤولون عن سلامة بعضنا البعض حتى ولم نكن من رجال الأمن .. أنتم تعلمون اضطراب الجامعة وتخوف الطلبة بعد الحريق وكيف أن مصالح جميع من يرتادون المبنى تعطلت .. ولولا الله لمات العاملان بلا ذنب في المخزن ، ولقضيت أنا نحبي بسبب ذلك الأهرع.

- فارس: جياد هناك أمر وضعته في ذهني كثيراً ويجب أن اطلعك عليه .. الرجل الملثم ربما كان يقصدنا لأننا من أعضاء فريق واحد ولهذا راقبنا وراقب كلامك على المنصة ..
- جياد (تتشابك يداه) : لا أظن أنه يقصد الفريق بأكمله .. إنه يتقصدني أنا .
- فدوى : ما مصلحته من ملاحقتك يا جياد !
- غانم : أليس هو نفسه من أشعل الحريق !
- جياد : لا ادري بلا شك هو يكن في داخله حقداً علي .. أو ربما يحاول تسريب بعض المعلومات ، وعلى الأغلب هو من أشعل الحريق.
- لينا (تبكي): قد أنا ربما !!
- جياد : لينا ما بكِ !
- فارس : إنها خائفة فحسب .
- فدوى : اسمعوني جيداً إن الملثم بلا ريب هو الذي أحدث كل هذه الاضطرابات هنا فهو الوحيد الذي لا يتصرف بطبيعيته كما الجميع .. وهو الوحيد الذي كان يراقب أعضاء الفريق في المؤتمر وهو الوحيد الذي استغل خلوة جياد لينهال عليه .. وما مصلحته من أن يفعل ذلك!! أليس المخزن الذي أحرقه كان قريبا جداً من مبنى الاستشارة ! ربما كان يريد أن يموه أنه لا يتقصد مبنانا لذلك أحرق أقرب نقطة إليه حتى تتبعث نحوه النار .
- تركي : يا رفاق فدوى على حق ناهيكم أنه لا أحد يشكل نقطة نقاش واحتداد للطلبة هنا سوى أعضاء فريقنا .. ربما يكون من بين الكثير الذين ظنوا أننا لسنا أهلاً لهذه المناصب وتمنوا لو يكونوا مكاننا .
- جياد : لقد فتحتم النور أمام عيناي لأضع تفسيرات حول ما يحصل .. أنا متأكد أنه سيعاود ملاحقتنا وعلينا أن نكون حذرين ويقظين ونمسك به مرة أخرى .. المكاتب كلها تقفل بإحكام رجاءً .

فور انتهائي من الاجتماع وتأكدي من إغلاق مكتبي ، اتفقت أن لا نتكلم في الموضوع لأي أحد حتى نمسكه بأيدينا ونسلمه للعدالة .. فلن يثق أحد بكلامنا ما دمنا لا نملك دليلاً وقد يضعنا المسؤولين في دائرة الاتهام ونحن نحاول التقصي عن الحقائق .
غادر الجميع عند السابعة مساءً إلا لينا لم تغادر .. وأتت إليّ باكية خائفة على عجل وأنا أتفقد المكاتب .
- جياد : ما الأمر يا لينا لما لم تغادري حتى الآن !
- لينا : جياد أنا أعرف من هذا المتستر .. صدقني أنا لا أكذب .
- جياد : اهدئي واشرحي لي بتروٍ كي أفهم من فضلك .
- لينا : هزيم .. اءء عندما كنت بالمشفى رآني صدفة وسألني عن رقم جناحك وغرفتك ولم أجبه كي لا يصل أليك فأنا اعرف أنك لا ترتاح له .. فقام بإيذائي وقال لي أنه يتمنى أن تموت الليلة .. كانت نظراته مرعبة جداً نبأتني بالشر الذي يحمله لك .. إنك وحدك المقصود من تلك التصرفات المجهولة .. إنه يقصدك أنت يا جياد .
- جياد : شكراً لكِ حقاً لأمانتك ولأنكِ لم تخفي عني أمراً كهذا .. ولكن لا يمكنني اتهام هزيم لمجرد سوءه معي فقد أظن به السوء إن لم أحمل دليلا .
- لينا : ألا تكفي عبارته أن تكون دليلاً .. من يتمنى لك الموت فهو لن يكون إلا حاقداً حاسداً وأنت لم تظلم أحداً .. لا يوجد أحد يكرهك كهزيم لو افترضنا أنه هنالك من يكرهك .
- جياد : أنتِ على حق .. ستكشف لنا الأيام كل شيء ، ثقي أن كل خطأ لم يتب الإنسان منه ولم يتراجع عنه لا بد أن يكشف حين يصل صاحبه به إلى مرحلة التمادي .عودي إلى المنزل الآن ولا تخشي شيئاً ..
ما أصعب تلك الفترة التي مررتُ بها .. كالجاثوم كالكوابيس .. لم أكن لأخاف أن أموت مغدوراً فالله واحد والموت واحد .. ولو كنت أخشى من ذلك المعتوه لما ترددت بالإبلاغ عنه ..إلا أنني مؤمن جداً

أن الوقت يكشف ما لا تفصح عنه الألسن ...
من تكون أيها الخبيث !..
وأين سندي عن كل ما يحصل لي !
أينك ساري !.. لا أريد أن تمنحني المواقف خبر السوء عنك .. عن أنك لا تقف مع صاحبك في الشدائد ، وهذا ما لم يكن ظني بك !
إن كنت أظن الخير حتى بمن لا يبدو الخير منهم وهو هزيم فكيف بك يا صديقي !!
ساري .. إلى متى وأنا اتصل ولا أحد يجيبني !
إلى متى أطرق بابك فتتهرب متحججًا من مقابلتي !

****

الفصل السادس

(نداءُ الآتي .. متسع للهروب)

تتكاثر الوجوه في وسط الزحام ، تَعرى تترى وتتشابه
حيثماإكتظ البشر ، ومن بين الجميع ، أعرفك يا أخي .. أعرفك جيداً
فلن يكون هنالك من يشبهك بكُلِك .. أنت .. الوحيد الذي
خذلتني ، تطرقع أصابع يمناك أأنت ذاك !

- ساري : أنتِ ماذا تفعلين هنا!

- سوار : أنا من يجب أن يسألك!

- ساري : جئت السوق لأشتري بعض الكتب من المكتبة.

- سوار: منذ متى وأنت تحب القراءة !

- ساري: منذ اليوم .. عودي للمنزل فوراً.

- سوار : أنا هنا مع زوجة أبي ليلى انتظرها ريثما تنتهي .. ساري أشعر أنك تخفي شيئاً.

- ساري: أيتها المزعجة دعيني وشأني ..
تركتك بنفسٍ غير مطمئنة ، مشحونة بالشكوك ، لكيلا تتضايق من وجودي.. وجودي كان يعرقلك عن المزيد من الخوض ، ولا أدري فيما كنت تخوض.
بداية الحقيقة كانت عندما استفز جياد غياب ساري المتكرر عن المحاضرات ، واختفائه المدحوض باللا مسوغات ، فطرق باب منزلنا عند المساء لأنه متأكد أن جياد لا يحب الخروج ليلاً ..

- ساري : ماذا هناك..

- وليد :جياد على الباب يريدك..
- ساري : قل له أني غير موجود.
- وليد : ولكني قلت له بأنك موجود!
- ساري : سحقًا لك.
- جياد : انتظرت طويلاً على الباب .. هل كنت تحاول تلفيق قصة جديدة للتهرب من مقابلتي.
- ساري : ما هذا الكلام أنا لا أتهرب من أحد.
- جياد : معك حق أنت لا تتهرب من أحد فقط مني.
- ساري : جياد مزاجي ليس جيدًا للجدال.
- جياد(يمسك يده وينظر لعينه) : أرأيت .. كم تتهرب ! ساري أركب سيارتي وتعال معي.
- ساري : لاحقًا ..
- جياد (بانزعاج): لن ألحَ عليك .

علم جياد أن هزيم هو الذي غير صديقه (سريع التأثر)، ولم يبدي سوى هدوء غامض كردة فعل من تصرفات ساري المغيظة ،أن يقنع نفسه بعض الوقت بأن ذلك الذي قابله الآن ليس ساري بل رجلُ يلبس جلدة ساري ..حسنًا كل ما استطيع قوله أن ساري لم يكن على ما يرام ..

مر الأسبوع الثقيل والممتزج بالخطوب سريعًا ، حتى اجتمع ساري وهزيم وسعد في النادي الرياضي ، الاجتماعاتالتكتيكية حيث يمكرون ويمكر الله .
- هزيم : محفظة جياد التي سقطت منه كانت ممتلئة بالنقود أكثر

عندما فتحتها كيف تقول إنك أعطيتني النصف وأخذت النصف .. أنت لم تقاسمني المال بالتساوي .
- ساري : بلى قاسمتك النصف ..
- هزيم : دعني أرى النقود التي في جيبك .
- ساري : ابتعد عني ولا تتجرأ على الاقتراب ..
صديقا الغدر الحميمان بدأ بالشجار وهما في غفلة عن أنهما فتحا مشروع صداقة استثماري للأحقاد الصامتة والأموال المجانية !! إلا أن الشركاء في الظلم والغدر والخيانة لا بد وأن تنقلب الدائرة عليهم وفيما بينهم ذات يوم ..تصاعدت حدة الشجار في النادي إلى أن صرخ هزيم أمام سعد الذي كان في الصالة الرياضية ..
- هزيم : إذن فأنت لم تنصفني في تقسيم المال !.. إذا لم تعطني كل مالك فسأخبر الجميع وبالأخص جياد أنك من أشعل النار وحاولت قتله وسرقت ماله !
- ساري :أيها الغدار كيف وثقت بك .. هل تهددني بعد أن كنت أنت السبب بكل ما حصل .. أنت من ساعدني على كل ذلك ولم يتردد لشدة حقده على جياد أن اقتله.
- هزيم : هههههههه لا تبرر أخطاءك ، القانون لا يحمي المغفلين .. لو كنت مخلصاً بصداقتك معه لما أقدمت على فعلاتك السوداء .
أصيب ساري بانهيار عصبي شديد وأحس بثقل منعه من الكلام فهرب خائفاً لا يدري أين يولي ..! إلا أنه اصطدم عند الباب بسعد الذي سمع كل شيء ، بل ولحنكة سعد بادر فوراً بمقاومة صدمته وتسجيل الحديث صوتاً وصورة ..
- سعد (بصدمة): مستحيل ! ما أقبح هذا الواقع الذي أراه بأم عيني وأسمعه بكلتا أذني ..
أنت ! أنت يا ساري من فعل كل هذا !! وكيف لا تفعل كل هذا وصديقك هزيم !.. أتغدر بجياد صديق طفولتك وصباك وشبابك ! جياد الذي ساندك في كل شدة بوقته وماله وبكل ما يملك وأغلى ما يملك !.. جياد الذي قال لي يوماً : " ساري الوحيد الذي أثق به لأن

طيبة قلبه تصلني دومًا ! .. " " من الصعب أن يكون هناك ساري اثنين .. " هل جننت !!!!!!!! أكلمك ؟ هل جننت !!!!!!!!!!!!!!!!!!
ساري لم يخجل من توبيخ أحد أكثر مما خجل لحظة ما كان سعد يوبخه ..تمنى الموت أو الغياب أو الذوبان ، انهارت دموعه على خديه وخيط لسانه بحبالٍ لا تلج سم الخياط ، شعر بأنه كان مغيبًا بعينين مغبشتين لا تريّان سوى الشر .. هرب من فوره ناسيًا حتى أن ينتعل حذائه .. خرج يركض في عز البرد تحت المطر..
يحاول الابتعاد عن أقرب نقطه وأبعد نقطة عن جياد ، ويحدث نفسه باكيًا ويلي فضحت ويلي ماذا فعلت ويلي سأقضي بقية عمري في السجن ويلي ويلي!
بينما ركب سعد سيارته وتوجه من فوره إلى الجامعة حيث كان جياد في المكتب الساعة السادسة مساءً تحديدًا ، دخل مقتحمًا الشعاب ناسيًا طرق الباب وهو يبكي ويصرخ جياد أحسن الله عزائك في مصابك !
- جياد : سعد ما الأمر ألا ترى أن طالبة عندي في المكتب !

- سعد : ساري ساري الوغد ..
- جياد : من فضلك يا آنسة ضعي استشارتك سأناديكِ عندما اقرأها.

خرجت الطالبة وأقفل جياد الباب وربت على كتف سعد الذييدى مضطربًا جدًا ..
- جياد : ساري تغير بعد صداقته مع هزيم أعلم ذلك .. ما الجديد !
- سعد : ساري هو من أشعل النار وهو الملثم الذي حاول قتلك وهو من سرق مالك ومحفظتك ..
- جياد غاضبًا : ما هذا الهراء هل تعرف ما تقوله !! انت تتهم أعز اصدقائي .
- سعد : وهذه الطامة الكبرى أنه أعز اصدقائك وأخوتك وجيرانك .. شاهد هذا الفيديو .

بعد أن رأى جياد بأم عينيه الشجار على محفظة نقوده ، والتهديدات من طرف هزيم الفهيم الذي فضح ساري وهو لم يُفضح بعد .. كاد أن يقع من هول ما سمع ورأى ، تمنى لو لم يرى شيئا ولم يسمع شيئا ولم يعرف أحداً، تمنى لو تنشق الأرض لتبتلعه .. ضاقت عليه الدنيا بصدره الرحب وعينيه الواسعتين اللتان كانتا تشعان بالأمل والنور في وسطالمواجع ، شعر للحظة بأنه يستوعب فقط غدر ساري ولا يستوعبه في ذات الوقت ، طلب أن يغادر فهو عاجز عن الاستمرار بالعمل ..

- جياد : سعد أرجوك لا تخبر أحداً ..

- سعد : يجب أن يعرف الجميع من المتسبب بكل هذه المصائب ليتم مقاضاته .

- جياد : أنا من سيتولى هذا الأمر .. عِدني أن لا تخبر أحداً ..

- سعد : أعدك !

خرج جياد يمشي بسيارته حتى الثامنة يرغب في أن ينزع منه كل شيء ربطه ذات ذكرى بساري .. فلم يجد نفسه إلا في بيته .

- جياد : ناجي أريد والدتك فوراً ..

- ناجي : سأناديها حالاً .

- سوار : جياد اشتقت إليك كثيراً أقدر أنك مشغول بسبب كثرة العمل ولكن ماذا عني ؟

حتى التي أحببتها لم استطع أن أودع نظراتي عندها ، ذنبها الوحيد الشديد أنها شقيقة المجرم .

- جياد : أين والدك ؟

- سوار : ولكن لما تكلمني بهذه الطريقة .. إنه مع زوجة أبي في منزلهما ..

- السيدة هنادي : جياد لما أنت واقف تفضل استرح ..

- جياد : سيدتي .. سوار .. إنني بحق مدين لكم على كل ما قدمتموه لي ، فقد كنتم كرماء معي جداً وهذا ما يزيد احترامي لكم .. إلا

أنني ولأسباب مؤلمة وخاصة بي جئت افسخ خطوبتي على سوار .. سوار سامحيني أتمنى لك التوفيق والنجاح .. والنصيب الأوفر مع غيري .
- السيدة هنادي (مصعوقة): ماذا !!!!! ماذا جرى لك !مالذي فعلته ابنتي المسكينة لك لتعلق قلبها وآمالها وبلحظة تنسف كل وعود الارتباط معها !! أليس عندك ضمميرا ! ألا تخاف الله .. إنك لن تجد مثلهاا ....إلخ .
- سوار (تقاطع والدتها): أمي .. كفى ، شكرًا لك يا جياد .. (تبكي بمرارة).
- جياد : سوار إنك فتاة رائعه و خلوقة والمستقبل ينتظرك .. كوني قوية ! وداعًا .

كانت ليلة شتائية ممطرة ابتلت المدامع الأربع و السحاباتالسود .. وأغشى علي لحظة خروجه ليلاً أناته تتأوه لا تنقطع ولا تنطفئ ، ألتاعُ به البكاء والألم والعجز عن استيعاب الفاجعة في حضن أمي ودموعها تتساقط على شعري ، ثمة إحساس لا يشعر به إلا من أحب بصدق ..وانتظر بصدق .. ثم صعق بحق !
- السيدة هنادي : لا تبكي يا صغيرتي إنه لا يستحقك أبدًا ..

في حين أن جياد تولى في الشوارع يضرب ذاكرته كي ينسى ، والريح تعصف معطفه يمنة ويسرى حبًا وكرهًا ، و تقلبه في أفران الكرب يحترق قلبه شيئًا فشيئًا فضنكًا .. يؤذيه الواقع كما آذى قلبي .. خرج إلى الألم .. طالما كان في دواخلنا عواصف ، أشدُ عتوًا من كاترينا !

عند الصباح وردَ ساري الجامعة مرتديًا نظارته السوداء وقلنسوته البيضاء التي يخفي بها نصف وجهه لئلا يعرفه أحد، واتجه فوراً إلى مبنى التسجيل كي يسحب أوراقه ويعلن انسحابه من الجامعة ثم

يأخذ أوراقه مباشرة ويتجه إلى المطار الدولي لعله يلقى تذكرةً يهرب بها إلى مكانٍ ما .. بعيد قدر الإمكان .
غير أنه تفاجأ بأن مواعيد الرحلات باتت بعيدة ، و أقرب رحلة ملائمة له كانت إلى بريطانيا .. تلعلع صوت الحيرة فيهِ ولم يدري ما عساه فاعل ، فهو سينفق كل أمواله على هذه التذكرة ..قرر ، لم يتردد ، ورجع لمنزلنا غضبان أسفا !! ..

- السيدة هنادي : أين كنت منذ البارحة يا ولد .. أكلما احتجناكاختفيت مثل والدك هل أتحمل أنا مسؤولية كل شيء!

سوار : هكذا أنتم .. لا تفتقدونني إلا ساعة احتياجكم لي ، كنت نائمًا في المسجد.

- السيدة هنادي : أختك في حالة نفسية وصحية سيئة تعال معي إلى الطبيب.

- سوار : ما بها هذه المدللة.. ألا ترين السماء تمطر في الخارج!

- السيدة هنادي : بدل ثيابك التي عليك منذ الأمس واركب في السيارة وسأخبرك ... نجوى أرجوكِ لا تسمحي لوليد بالخروج في هذا الجو.

- السيدة نجلاء : حسنًا عزيزتي.

انتشلت عباءتي من العلاقة بعد إصرار من أمي أن تأخذنيإلى الطبيب ، فقد كنت شاحبة جدًا وصفراء ، إضافة أنه أغمي علي مرتان في هذا الصباح .. لم أكن استطيع أن أبوح لها أن كل ما جرى لي بسبب جياد أود أن أبدو قوية حتى أمام من جئت منها أمي ..

ركب أخي السيارة واتكأ ليباشر القيادة ، أخي السبب بكل ما حصل لي ينظر إليَّ مذهولاً لفرط اصفراري وزرقة شفتاي..

- السيدة هنادي : حرك السيارة.

- ساري : طيب ، لن اسرع بسبب المطر سوار ما بك!
لم أرد عليه فلو نطقت لبكيت و أسكتّه ، اتسألني ما بي وأنت معي في نفس المنزل ، لقد أهملتنا كثيراً واهتممت بهزيم ..
- السيدة هنادي: البارحة طرق جياد علينا الباب ليعلن أنه قرر فسخ الخطوبة على أختك!!
- سوار (مصدوم في داخله): هل يلهو بمشاعر أختي هذا الجياد .. على كل حال قلت لكم سابقًا إنه من أسرة غنية وسيرفضكم ما إن يجد من تناسبه ماديًا ..إلا أنكم لم تصغو إلي .
كنت أبكي في الوراء على ما أسمع ..يلومنا وكأننا نطلع على الغيب أو نعرف ما وراء ستار الأقدار..
مؤسف أنك خرجت من نفس البطن التي خرجت منها .. مؤسف أن البطن التي حوتني حوتك ..مؤسف أنك أخي.
طمأن الطبيب والدتي وأخبرها أنني لا أعاني من مرضٍ عضوي مجرد فترة طبيعية تعرف بالصدمة العاطفية وتزول بعد مدةٍ وجيزة أو غير وجيزة بالإيمان وتشجيع ممن حولي .
وبوصفة الطبيب السحرية الخالية من الدواء عُدنا لنقابل والدي الذي كان ينتظرني ليطمئن على صحتي .. ويفاجئه ساري بالإفصاح عن ما يربوا في باطنه إذ قال لأبي بأنه سحب أوراقه الجامعية ليدرس في بريطانيا فالتعليم هنا لا يناسبه كما يدعي .

- السيد توفيق : من سمح لك بأن تفعل كل هذا ؟!

- ساري : أنا لم أعد طفلاً صغيراً لأستشيركم في كل شيء ..أريد شهادة عالمية لأرفع رأسكم .

- السيد توفيق :لكنك ستسافر!! هل تطيق الغربة وحدك !

- ساري :لقد عشت معكم كل عمري وأنا لا أشعر إلا بالغربة لذلك لن يكون التأقلم هناك صعبًا .

- السيد توفيق : أنت قلتها بنفسك " لم أعد صغيرًا " تحمل نتيجة تصرفاتك الاندفاعية ، وأفعل ما تريد.

- ساري :سأفعل ما أريد .

تهرب خوفًا أكثر منه عزمًا .. تعزم قرارًا أكبر منه فعلاً ..تفعل ذنبًا أقذر منه هربًا .. مصيرك بين نفسك ، يا صانع المصير ، يا باغي التملص والنكوص !

****

الفصل السابع

(بعيدًا عن المحيط قريبًا من الغريب)

هو وطنّ جدائلُ الغيم فيه سِتيرةٌ للشمس ، كثيرة الهطل وثيرة ، أراني فيه بعد خمس ساعات سفرٍ مكفهر المسير نحو أرضه ، هو وطنٌ لا يشبهنا ..

ما إن حططت بقدماي المجهدتان " خوفًا"، بالكاد تتنازلان لتحملانني بسلطانيةٍ غير معهودة ، أحسست براحة العائد إلى وطنه بعد كنزة غربة ! إذ أني اليوم الغائب عن وطنه يحس براحة العائد .. راحه مؤقتة المبتدأ و المنتهى تركت خلالها الأهل والصحب والضمير ، الأخير كان يبكي بحرقة ، الضمير أعدم من عينيي البهاء وترقرق دمع الحسرة ناتئًا خباياه ليتسلط علي كل مساء ، أئن طويلاً كلما عذبني ضميري .. ليته رجلُ لأقتله بأقصى درجات السفاحية ،فمثلي صار مجرمًا وغادرًا وغريبًا ، فمثلي مات بداخله كيان ..يُقال له "ساري" !!

هُنا المجتمع لا يحكمه سوى القانون ، يشيع بالنفس الحرص على أن تكون جيدًا قدر المستطاع .. أن تكون إنسانًا يحترم غيره ويحترم نفسه ويوقر القانون ..وعجيبٌ كم غاب الإيمان عني ذات وهلة إجرام ، هل يمنعني القانون ، وأهرب خوفًا من قضبان السجن إذ تم الإبلاغ عني ولم يمنعني الإيمان ؟!.. الأرجح الإيمان فعّال أكثر من القانون .. لأن الإيمان يشكل "وازع " "و وقاية " و "تجنب" و"خوف" .أما القانون فوقاية وخوف فقط .. ولو كنت بعيد الموقع

في جبال النييجر أو الروكي أو عند هضبة التيبت مثلاً ولم تجد قانونًا لتتيمم به وليس عندك "إيمان كافي وضمير يقظ" فأنت لن تخشى التجنب .. بل لعلك وبأسوأ افتراض ستستعبد كل رغابتك ، وتقدس كل ما كنت تتحاشاه خارج زرياب الخلوة .. بعيدًا عن ضوء القانون !.. هكذا الإنسان حين لا يعود إنسانًا !.

سكنتُ في ضاحية يقطنها مسلمين عرب في مدينة إسكوتلندا ، وصلت الشقة التي أجرتها بنصف مالي خائر القوى غير ذي اطمئنان ، الشقة باردة يزقزق الباب خلال أبسط تحريكة ويصرُ على نحوٍ مزعج ومزعج ومزعج، عطش فادح في هذا المكان ! كل شيء ليس كما يجب أن يبدو ، اللوحة التي ربما (ستمنحني أبعاد الجمال) على وشك السقوط ! تحتاج حالاً عشر طرقات و دفعةً واحدة ولا ادري كيف لتثبت .. جلستُ أنقب فيها عن ذرة راحة ولم تهبني سوى رشات من النشوة المؤقتة ، استلقيت على السرير قبل أن أبدل ثيابي .. استلقيت ألوذ للنوم دون أن أتذكر أنه يجب عليَّ الاستحمام أولاً ..استلقيت أطالعها حسناء غرفتي اللوحة المهترئة .. كانت بحرًا موَّاج .. ذي انحساراتٍ لا تجيد التمنطق بإحساس الرائي .. تحدثك اللوحة بمشهد حيواتٍ بكاءات يكشف بلحظة تأمل أخرى مشهد حياة تعمر بفرحٍ غامر ، ربما هي الحياة كلها بكلها من متناقضات، ربما هي اختصار للحياة .. فرح وحزن .. الكأس الذي فيه ماء والنصف الذي يعبأه الهواء بلا ماء .. النظرة الإيجابية والنظرة السلبية .. يومٌ لك ويومٌ عليك .. أجادل ما قلته للتو بما أقوله الآن جدالاً يعترف بقوانين الزيف السطحي ..كيف للوحةٍ بهية ذات مغزى يشتريه الناس من الحكماء أن توضع في شقة خاوية عطشى مثل هذه !.. ولما هي في غرفتي أنا ؟ هل وجدت الأمان في غرفة مجرم ، أم أنها مثل أقداري سابقًا وجدتها أنا معي

!!.. كم بدوتُ ساذجًا وسطحيًا حين لم اكترث بنظرتي الخطافة الأولى إلا إلى أنها غير معلقة بإحكام وثبات قياسي حذق، كيف لم أنتبه إلى أنها الشيء الوحيد الذي شدني هنا بدايةً.
أنا أقطن في أحد الأحياء المتواضعة المعدمة من مظاهر الترف في بريطانيا .. حيث الجاليات المسلمة تعرف بعضها بعضًا ، وحيث مسجد صغير .. و بقالة قريبة .. ونافذة تختصر العالم في شقتي كل صباح .
استيقظت على صوت الرعد .. المطر الذي اشتد "خارجي" مذ غفوت "داخلي " إلى عوالم شفقية ، عوالم دافئة أنستني برودة الشقة .
نهضت لآخذ حماماً وأبدل ثيابي ، وخرجت بثلاث معاطف إلى الشارع اسأل عن مطعم أو بقالة توقف زقزقة عصافير بطني المتضاربة .

أتبعثر بعيون العابرين ، أحاول أن تسعفني لغتي الغير ممتازة لأقول كلمات استدلُّ بها عن مبتغاي ..ربما نجحت قليلاً فقد وصلت إلى مطعمٍ صغير في داخل الحي إضائته مشدوهةٌ بالأصفر الحار، وديكوره تقليدي مريح .. ساندويشه صغيرة وعصير
طبيعي اسكتُ بها الأمعاء وخرجت من فوري متوجهًا للشقة فالمطر فاض بشكل غير مُعتاد .. حيث كانت الليلة الأولى .. الليلة التي لا ادري ماذا ينتظرني بعدها .

نجيء عوالمنا بنزاهه مهمشة ، ننسى كم جئنا فطريين .. نعمد إلى حضن الأم في ليلةٍ عاصفةٍ يسطو علينا شبح الرعد كما كنا نسميه .. الرحيمة ، ذات الألفة العجيبة التي كانت تفتح ذراعيها وتخبرنا بدفءٍ لامع فوق سماءاتنا .." إنه ليس مخيفًا، إنه جندٌ من جنود الله .. " كنا نظن أنها لا تقول الحقيقة تخادع شعورنا بالخوف

ليموت حضور الخوف في دواخلنا ، إلا أن ماما كانت صادقة إذ أردفتنا الحديث "هل يخاف من يحتمي بالله ؟ رددوا معي صغاري :سبحان الذي يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته " وكنا في حجرها كأننا بذور الأرض تنمو بعد هذا الدعاء ، وكانت تعمد أن ترضعنا الإيمان والتحصن بالله وتوحيده .. ياه كم افتقد حضنكِ الجد بالجَد كم افتقد يداكِ البلسم عندما تداعب خصلات شعري ، تزرعين البركة بعمري دون أن تعمدين ، تنيرين العالم بقلبي بلا أضواء ، تتقنين وحدك تطعيم الاطمئنان يا نبع الحنان والأمان والإيمان .. بعد بعدي عنكِ ..أدركت أنني ما زلتُ طفلاً ، أين أنتِ اليوم مني يا أمي ؟ لكم أتوق لحظنٍ أغطس في حناياه حتى أغطس في حنايا النوم ، لكم اشتاقكِ يا ماما .. لكم أبكيكِ فقدًا وأبكيني وحدةً وأبكيه ذاك جرمًا .. أثملني من كؤوس الندم ، الغربة تعيد استشعارك بالمشاعر التي لم تكن تقدرها في وطنك .. تمنحك فرصة لتذوق البديل المرير والأسى المترامي على وسائد أمسك ومسائك . الغربة حكمة .. الوطن نعمة ..وكم نكفر النعمة عندما لا نستشعر الحكمة ..!! أفقتُ وأنا ألكم المنبه بضرباتٍ تخرسه عندما ذكرني أنها السابعة ،صباح ضبابي بهواء بارد ..فتحتُ النوافذ .. أغمضت عيني ورفعت رأسي الذي اشتاقَ للعلو منذ وقتٍ طويل، واستنشقت هواء الحي كله ، شعرت أني أتقلب بالحرية .. مثل هذه العصافير التي تزهو أمامي وهي تقتات رزقها ما الضير أن أصير مثلها .. أسرعت وارتديت سترتي الثقيلة وربطة عنقي ، تأملت في المرآة المكسورة هذا الصباح .." كم أبدو جياد" جياد لا يجب أن اذكر اسمه بعد اليوم .. لقد خسرته .

جرت مراسيم التسجيل في الجامعة الجديدة (سانت أندروز) بسهولة بعد أن سجلت سطحيًا عبر موقع الجامعة وذهبت لأقدم أوراقي وأجري امتحان القبول.. وكان يجب أن احضر محاضرتي الأولى اليوم بعد التسجيل واجتياز القبول عند الحادية عشره.. كيف يمكن لتفاصيل تستغرق أسبوع في الشرق أن لا تتجاوز ساعتين في الغرب !

وجوه أعجمية لم ألفها ، لا أعرف أحدًا ولا أحد يعرفني .. حسنًا هذا مريح لكن ليس كثيرًا ، قسم اللغات يبدو كثيفًا بالأعداد وبديعًا لكني مستوحش حد الانعزال ..

جلست في مقعدٍ بقرب النافذة أراقب الطبيعة وأتظاهر بعدم الاكتراث لكونه أول يوم لي في بلد أجنبي ..شعر أحد الطلبة بأني وجه جديد فاقترب ..ونطق بلسانٍ أعجمي .. بما معناه !

- دانييل : يا صاح ، هل أنت طالب جديد في هذه المحاضرة ؟

- ساري : أجل ..

- دانييل : تبدو جميلاً جدًا !!! ملامحك غريبة ومذهله .. يا رفاق تعالوا وانظروا هنا !

هل يسخر هذا الأشقر مني !! هل يهزأ بشكلي الذي لم يعني لي سوى العار أمام جياد ، مع أني لستُ قبيحًا .. تهيجت غضبًا في نفسي وودتُ لو أفصل رأسه عن جسده ، ازددت استغرابًا وأنا اسمع عبارات إنجليزية تصف مدى جاذبيتي واستحباب هؤلاء الشقر حولي لملامحي السمراء الصحراوية .

كيف يروق لكم وجه شخص ليس أجمل منكم ! يا مغفلين ؟

- دانييل : أريدك أن تكون صديقي ما رأيك ؟

- صوفي :صديقي أنا !..

- وترلس : بل صديقنا جميعًا ..

- ساري : لكن لما كل هذا من أجل مصادقتي ! أنا مجرد شخص عادي !
- دانييل : أخبرنا من أين أنت ؟
- وترلس : أنت أسطورة طالما حلمت بأن أحظى ببشرة برونزية كبشرتك .
- ساري : أنا من الشرق .. تحديداً من الخليج العربي .
- دانييل : نحن أصدقاء طيبون ومتعايشون هنا مع العديد من الجنسيات ..سنرحب بك بالطبع .
- ساري : من لطفك ..يا..
- دانييل : دانييل ..
- ساري (يبتسم): دانييل .

انقضت المحاضرة التي لا بأس بها ووافيتُ إلى الأخرى لأرى نفس التوجس المُمتلئ بالإعجاب بشكلي .. حتى تيقنت أنهم لا يجاملونني لمجرد أني طالب مستجد بينهم .. لفت قريحتي طالب يتحدث العربية بطلاقة في نفس قاعتي ..
- رياض : يا سلام كمية هائلة من المعجبين من أول يوم ..!!
- ساري : أنا لا أفهم سبب كل هذا .. في بلادي لا يحصل ذلك !
- رياض: الاختلاف يصنع فرقًا ..ملامحك عربية أصيلة غير متوفرة هنا الملامح أعجمية حد النخاع .. لذلك تبدو فريداً .. معايير الجمال هنا تختلف قليلاً عن معايير الجمال في الشرق .. يبحثون عن شعر أسود وبشرة سمراء وعينان كحيلتان سوداوان وهذه تقاسيمك .
- ساري : الآن فهمت .. لحظة أنت تتكلم مثلي !
- رياض: أنا مبتعث مثلك من الخليج ..فرصة أن أجد عربيًا

هنا هههههه قل أنك ستصاحبني ولن تصادقهم لأنك لن تتأقلم إلا معي.
- ساري (ببرود) : لا أود مصادقة أحد .

انتهى دوامي وخرجت أمشي تحت المطر بقدمانِ يقطنٌ فيهما البلل إلى قبوي القريب .. إلى قبري الهادئ ، إلى سجني الفاره ،لحقني ذلك المتوعك بالفضول وأتاني سعيًا طويلا ..
- رياض (يلهث): ساري ساري توقف لقد تعبت من الركض ! ..أنت غريبُ الأطوار حقًا خرجت قبل الجميع في الوقت الذي وددنا لو نتعرف عليك !
- ساري : لماذا لحقت بي ؟!
- رياض: أنت جديد على هذه المدينة ويجب أن أدلك وأعلمك الكثير من الأشياء هنا .
- ساري : لكن لما تفعل ذلك !
- رياض: اعتبرها خدمة أخوية .. مدينة سانت أندروز مكتظة باللصوص ليلاً خصوصًا في ذلك الحي المنعطف أمامنا تجنب أن تهمل محفظة نقودك عندما تقصده .
- ساري : أنا لا أهاب اللصوص .
- رياض : هههههههه أنت متكابر .
حقنتني ضحكتك الباردة بنصلٍ ناقض حقيقتي، ألهمها أن لا تكون كما هي .. لستُ متكابر ، لكني غريب الأطوار كما كان يلقبني جياد ، هذا كل ما في الأمر.
- ساري : هذه شقتي أسكن في الدور الثاني .
- رياض : سأزورك مساءً لنخرج سويًا .. فرصة سعيدة .

مرت ثلاثة أيام على هذه الحال ، استيقظ للجامعة وأخرج مع رياض كل مساء .. لقد شعرت أنني مرتاح معه للغاية ، لا بل وأتلهف لتحين الثامنة ويطلعني على شيء جديد في المنطقة ، بدى لي أنه شخص محبوب واجتماعي جداً ، خدوم وطيب القلب وآلفُ وجوده بقربي !!... يشبه جياد في طبعه الرحب لكنه لا يشبهه في أشياء أُخرى، ربما أرى كل شخص يمتاز بالطيبة والاجتماعية جياد لفرط تعلقي به سابقًا .

آخر الأسبوع خرجت مع رياض عند التاسعة وأخذني بعد العشاء إلى مزرعة خيول ثم باشر من فوره بتعليمي ركوب الفرس ، وشجعني على تعلم هذه الرياضة التي يهيم بها ، فهو من ضمن فريق الخيَالة في هذه المزرعة الجميلة ..

- ساري: شكرًا يا رياض ، لقد مر أسبوع وأنت معي .. بلا شك أتعبتك .

- رياض : لا تقل ذلك .. نحن أصبحنا أصدقاء.

- ساري : أصدقاء!

- رياض : لما تفاجأت !

- ساري : لا أبدًا .. هذا يسرني كثيراً..

يسرني ولكن .. أنا لا أستحق أن يكون لي أصدقاء ..!!

أنا مُجحف ومتخاذل وغير رائق بالصداقة وللصداقة ، أنا سيء . هذا كل ما في الأمر .. لا تعلم أنت شيئًا.

- رياض: ما رأيك أن نقضي الليل في هذه المزرعة ؟

- ساري : ولكن أين سننام ..

- رياض : في ذلك الكوخ الصغير ، تقطنه الجدة سميث ، تعرفت عليها عندما كنت ارتاد المزرعة كي أتفقد حصاني كل أسبوع .

لقد أكرمتنا هذه الجدة المنطوية عن العالم ، المنزوية في كوخها أو وكرها الدافىء بشدة .. ماهي إلا عجوزُ محض متروكه ، العالم كل العالم لا يتعرفها وربما هذا ما يجعلها ضحوكة ومنشرحة ، أعطتنا فراشين لننام عليهما بينما ظللنا نتسامر وتتعالى ضحكاتنا طول الليل .. لم أتحدث منذ وقت طويل بسعادة كما الآن ، بلسانٍ يزج بخصوبة المحتوى ، أشعر أنني مع رياض بحالٍ أفضل .. لقد طلب مني أن أفتح قلبي وقال أنه مستعد لسماعي .. ولم أجد ضيرًا في البوح .. البوح الذي أراحني .

- رياض : يبدو أنك صاحب قصة طويلة ..

- ساري : قد تكون محقًا .. أتعلم لقد كان لي صديقي يحمل الكثير من طباعك وهذا ما جعلني أفضله كثيرًا ، ولكنني وللأسف خذلته .. وندمت على ذلك الآن .

- رياض : كيف خذلته ؟

- ساري :تعرفت على صديق آخر ظننت أنه جيد وتمسكت به كثيرًا حتى أنساني صديق الطفولة .. وللأسف تبين لي أنه غدار ومنافق وسيء فوق السوء وقوانين السوء .. ساعدني كثيرًا على أن أخسر جياد.

لم أستطع يومها أن أبوح لصديقي الجديد أني حاولت قتله !!..خشيت أن أخيفه فيخسرني ..

أتصلُ أسبوعيًا بأسرتي وأحادثهم صورة وصوت وقلب وتوق عبر الإنترنيت ، قيمتهم عندي تتضخم منذ أن ابتعدت عنهم ، الجميع ينتظرون أن أعود بشهاده رفيعة مرموقة من بريطانيا ، كم تطلعوا

بالسلوان على بعدي أن الغربة ستجعلني أتحمل المسؤولية أكثر .. الجميع كانت تصلني أخبارهم إلا سوار .
سوار التي تغيرت علي كثيراً بعد ما حصل لها ، أشعر وكأنها تعلم كل شيء ، تعلم أني أنا السبب ولكن كيف لها أن تعلم وقد قطعت علاقتي مع جياد .. ربما لن تصدق أن سبب فسخ الخطوبة كان لأن جياد لا يريدها فجأه .. ربما هي وحدها من يعلم أنني أنا السبب ، هراء .. مرمية بغرفتها مع أوجاعها لا تخرج من المنزل ، كيف لها أن تعلم !

مرَ شهرين بسرعة انتحارية أحيانًا وببطءٍ كئيب أحيانًا أُخرى ، بدأ المال الذي يرسله إليّ والدي للدراسة لا يكفي، وأرى أني احتاج المزيد من البحوث والكتب ومالي في اضمحلال ..لقد كان ذلك يسبب لي الخوف على الدوام ، حتى جاء ذلك الفجر الذي قصدت فيه الذهاب إلى مسجد حيينا وبدأت أقرأ بعض المطويات الدينية هناك ولفت انتباهي _ الله لفت انتباهي _ دعاء خاص للرزق مكتوب أسفل المطوية " حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله وإنا إلى ربنا لراغبون ".. فأصبحت أردد هذا الدعاء بكرةً وعشيا ، مر أسبوعان ولا رزق يأتي بل مالٌ ينقص وقلق يتضاعف وواقع يعاندني عناد الندِ للند !.. فأسرعت قبل المصلين كلهم إلى إمام المسجد وخطيب الجمعة بنفس الوقت كما هي عادتي منذ عهدٍ طويل ، وأخبرته أنني أردد هذا الدعاء منذ وقت طويل ولم يصلني شيء !!!
- الإمام : هل أنت موقن بالإجابة ؟
- ساري : بالتأكيد .
- الإمام : هل أنت تبذل الأسباب ؟
- ساري : أجل أدعو في كل وقت ..

- الإمام : أقصد هل أنت تعمل ؟
- ساري : لا يا شيخ اعتمد على المال الذي يرسله لي والدي كل شهر.
- الإمام: إذن فهذا هو السبب يا بني ، التوكل على الله ودعائه لا يكفي لتحقيق مطالبنا ويجب أن لا تتواكل ، ابحث عن عمل فإذا رأى الله عملك رزقك من حيث لا تحتسب وتحتسب ..استمر بالدعاء وابحث عن عمل حلال .
شكرت الشيخ نصحه .. وقابلت رياض في الجامعة وأخبرته بكل شيء ..
- رياض : أتعلم . مشكلتك تشبه مشكلة طالبين عربيين معي في السكن .. يبحثان عن عمل يسددان به ديونهما وأقساط الدراسة .

- ساري : ما العمل ؟!
- رياض : امم هناك فكرة .. لما لا نفتح كُشكًا نحن الأربعة مثل باقي الكُشكات المنوعة في الساحة العامة .
- ساري : كُشك ! ولماذا نفتح شيئا يوجد الكثير منه .
- رياض : كُشكنا سيكون مميزًا ، خصوصًا وأننا عرب .. سيكون مكانًا للأطعمة الشرقية .. الناس هنا تبحث عن الشيء الغير موجود ، فرصة لنعطي الغربيين لمحة عن الأكل الشرقي وسنختار أصناف لذيذة كالسندويشات و الشاورما والمهلبية وغير ذلك .
- ساري : أنت صاحب تفكير مبدع !! كيف لم تخطر ببالي هذه الفكرة ، ولكن ستواجهنا عدة مشاكل من أهمها أننا لسنا طهاة ، ومن أين سنأتي بالكشك وبآلات الطهو .
- رياض : سنقوم بحجز موقع خالي بعد الترخيص لنا بذلك، وتأجير كشك نصبغه بأنفسنا بشكل جذاب .. أما الآلات فأعرف مكانًا يستطيع أن يبيعنا إياها بأقل تكلفة ممكنة .. وبخصوص الطهو لا بأس أن نرسم خطة بعد أن نجتمع نحن الأربعة نتناقش فيها حول

ما سيكون من أصناف ، وخلال فترة تجهيز العمل سنأخذ الوصفات من مطاعم عربية عبر الإنترنيت ونجربها أكثر من مرة حتى نتعلمها .
لقد تحولت الفكرة إلى حقيقية بتوفيق من الله أولاً وبحرص شديد من رياض ورحيب ثانيًا .. أما أنا وحمد فقد تولينا مهمة صبغ الكشك وتزيينه بعد أن تعاونَا على مبلغ تأجيره ، بعد أسبوع ونصف افتتح كُشكنا اللامع الذي لفت وجوده انتباه الكثير ممن يتمشون في الساحة العامة .. كان رحيب وحمد يعملان فيه في الصباح عندما نكون في الجامعة ، ويذهبان للجامعة مساءً وقتما نصل نحن لنعمل في الكُشك .. أثنين بدراسة صباحية ودوام مسائي .. واثنين بدراسة مسائية ودوام صباحي وهكذا نتبادل الأدوار ، نجهز المواد و التتبيلة والأغلفة منذ المساء ونقوم بطهوها عند الصباح ، شخص يبيع وشخص يصنع الطعام ..
- ساري : رياض هذا ثالث يوم لنا انظر الناس تتزايد عندنا شيئًا فشيئًا ..أخشى أننا نحتاج إلى عاملين إضافيين في المستقبل .
- رياض : لا تقلق سنتدبر أمرنا .. إذا أضفنا عمالاً فسينافسوننا في الربح ..
- ساري : لم أكن أعلم أن الطعام الشرقي مفضل !
- رياض : ليس مفضل ولكنه لذيذ وغريب وهذا ما يشد الناس نحونا .. ناهيك عن أنك جعلت الكشك لوحة فنية ملفته للنظر ..
كنا كل أسبوعان نجتمع نحن الأربعة لنتقاسم الربح الذي يزداد أسبوعًا بعد أسبوع .. و الحمدلله استطعت بالعمل البسيط هذا أن أتدبر أمر البحوث والكتب واشتري لي حذاءً جديدًا وبدلة ..
كان شعورًا ممتلئ بالبذل والعطاء عندما أرى الصغيرة الجميلة تلوح بيدها لي كي تطلب ساندويشة ، الجميع يبتسم عندما يتذوق طعامنا السريع في هذا الكشك .. بعضهم كان يأتي خصيصًا ليتذوق القهوة العربية ، وبعضهم كان عربيًا مغتربًا هنا وجد كشكنا فرصة لإعادة الحنين إلى الأوطان ..ورغم أن التوفيق بين الدراسة والعمل يتطلب جهدًا بالغًا إلا أنني لم أكن أحس بشيء إلا إحساس الرضا عن

نفسي ... لقد كنت مشغول الوقت دائمًا وهذا ما أنساني الكثير من الغربة وصنع لي تأقلم مؤقت في هذه البقعة من الأرض ..
بعد مرور شهر ونصف على هذا المشروع كنا قد دخلنا في شهر إبريل أي فصل الربيع .. الربيع المنحدر نحو الصيف ، في إحدى الليالي الضبابية وأنا عائد إلى شقتي بعد أن استلمت من رياض أجرة عمل هذين الأسبوعين ، وأنا أمشي وأعد الدولارات لأتأكد أنه المبلغ صحيح.. اتعثر ، وأرى قبالتي بثلاثة صبيانٍ يتهجمون علي في إحدى الزقاق ويخطفون بسرعة الضوء المال مني .. فزعت حين رأيت المال في أيديهم ركضت ألحق بهم ولكنهم اختفوا بعد بحث استمر ساعة ..
عدت إلى الشقة والدموع تنهمر من عيني بغزارة لقد ضاع تعب أسبوعين ، كيف غاب عن بالي كلام رياض أن أحذر من السير ليلاً عندما أمر تلك المنطقة ! وكنت قد قررت أن اشتري كتابين إضافيين وبعض المستلزمات والأطعمة .. فقد صرت نحيفًا ومنهكا لكثرة العمل ..كان التعب يتساقط من كل أعضائي يقصم ظهري يُسهد عيني ، وأنا على الفراش في ظلمة دامسة .. تذكرت شيئًا واحدًا ، تذكرت شيئًا موجعًا ، وهو أني سرقت ذات يوم من جياد محفظة نقوده وتقاسمت بكل غباء المبلغ الكبير الذي كان فيها مع هزيم ثم غدر بي ..!
هل أعد ما حصل من الله دين .. إن كان يا ربي دين فأنا استحقه عشر مرات عشرون مرة مئة مره .. فأن يسرق منك صديقك أعظم ذنبًا من أن يسرق منك لص .. يا الله كم أنت عادل ، كم أنت لا تظلم مثقال ذرة ، أين كنا غافلين عن عدلك عندما ظلمنا الناس ، أين كان الناس غافلين عن عدلك ، عندما ظلمونا !
لم انم الليل كله .. أشهق كثيرًا بجسدي البالي الذي أعياه الجوع والفقر .. يا للعدالة السماء ! يا للعدالة السماء ..فكرت ! لقد سرقت من جياد مبلغ يساوي خمس مائة وتسعين دولار ولن يمكنني إيفائه بسهوله خصوصًا وأنا معدم وفي حالة يرثى لها ، ثم إنه علي أن

أعيد إليه المال الذي أعطيته لهزيم من محفظة جياد.. يا رباه لكم كنت أحمقًا حينما سرقت وهل أضمن عودتي حتى أعيد المبلغ ! وهل بَلغ عني جياد الآن هل سأدخل السجن إذا عدت .. لقد تسلط علي الضمير من جديد ليعذبني ليلةً بروازها الغموم ، وليتها كانت الليلة الوحيدة .. بعد أسبوعان تقاضيت مرتبًا آخر وكنت حريصًا على أن لا يضيع مني أو يختفي لدرجة أني وضعته عند رياض حتى استلمه صباحًا .. وعدت أتمشى في طريقي إلى الشقة وحيداً .. والريح تعصفني مجهولة الحين والمقصد .
بالمناسبة قررت أن اقتطع كل أسبوعين من المبلغ لأُعيد لجياد سِرًا ما سرقت منه إذا كتب الله لي عودة للوطن ..
مرة أخرى يهجم علي نفس اللصوص بغدر أبليس للإنسان من ورائي ويمسكني أحدهم من رقبتي حتى أشعر أنني سأموت خنقًا ليفتشوا جيوبي فلا يجدون شيئًا ويرمونني كفأر المساقي..وبانتصارٍ يبتسمون ويرحلون !
رجعتُ لأشرب كمية هائلة من الماء واحمد الله على أني نجوت من الموت المحتم .. وأجلس والدموع تحرقني في فراشي الباكي لماذا ينغصون فرحي كل ما تقاضيت المال.. و يا للعدالة السماء مرة أخرى لقد أعادت لي الذاكرة شيئًا " غفلت عنه .." "نفس الطريقة التي أمسكت بها رقبة جياد وحاولت خنقه تحدث معي اليوم ".. وربما لو قتل جياد على يدي لقتلتُ اليوم على أيدي هؤلاء اللصوص ... حالة من الندم والخوف من الله سكنت قلبي ، لقد شعرت بعدالته وقوته و بفداحة جرمي الذي هربت منه ، فنهضت لأتوضأ بالماء البارد و أبكي ساجداً أن يا ربي سامحني .. أرفع بدموعي الحارة أكفي لاهجًا بالدعاء إلى الله ، أي ربي وفقني لأرد ما أخذت من جياد .. جد لي حلاً للمشكلة التي هربت منها ، هل سأبقى في الغربة مدى العمر ،لقد ضاع مستقبلي بسبب أني استسلمت لإيدلوجيات خاطئة شيطانية ولنفس هزيم الطغيانية القارونية .. ما العمل الآن .. ساعدني يا حنان وسربلني صبراً يقيني

الدين الذي لا بد أن يرد لمن ظلمته .
مرت سنتين .. سنتين ونفس الروتين يعاد في الصيف والشتاء والأصعب الأقسى على أهلي أني لم أزرهم لمدة سنتين فقد كنت أخشى أن يعلموا عن سبب هروبي عندما تطلبني الشرطة ، استطعت و الحمدلله أن آخذ درجة البكالوريوس في اللغات وتوفقت بجمع الكثير من المال من هذا الكُشك الذي تنامى شيئًا فشيئًا ، واشتهر نوعًا ما .. كذلك ضاعفت واستثمرت أموالي مع رياض .. الآن عندي المبلغ الذي سرقته قبل سنتين من جياد ، وعندي ثمن تذكرة سفر وعندي ما يساوي أن أُؤسس نفسي مبدأيًا في الوطن .. رياض عاد لوطنه ورحيب عاد كذلك وكل المبتعثين كانوا يزورون أهاليهم إلا أنا .. كلما حادثت والدتي اسمع بكائها المرير الذي يلومني لما لم تعد إلى الآن .. هل استغنيت عنا ؟ ..أم نجوتَ منا !
حتى قصدت إمام المسجد الذي كان والدي وقت الغربة ، آخذ مشورته دائمًا لأنني أراه حكيمًا وسديد الرأي ، أخبرته بكل شيء .. فقال لي أن الهروب ليس حلاً ، إنما توهمُ بالحل .. هو بحد ذاته مشكله أخرى لا يستطيع أحد أن يترك وطنه إلا مرغمًا كيف ستطيق العيش بعيدًا عن أهلك مدى العمر ..
يومها قررت أن أعود وأن أواجه جياد .. فالهروب صنيع الجبناء . وليحصل ما سيحصل . كم هو صعب هذا القرار ..حملت أمتعتي وغادرت في السابع والعشرون من مارس عام ألفين وخمسة عشر ..

عدت ليستقلني الجميع استقبالا حافلاً بالزغاريد والحلويات ، تستفتحه الدموع والأحضان وتنهيه " الكفوف" والعتابات ، على عجل و بعد أن قضيت أول يوم لي مع أسرتي خرجت عند السادسة عصرًا لأدق باب جيراننا القدامى ولا أتوقع أي شيء خوفًا من التوقعات ، كان غروب الشمس ينعكس على أزهار حديقتهم الأنيقة البهية، كل شيء لم يتغير، كل شيء كما كان إلا أنا ، لم يفتح

لي الباب سوى خادمتهم الجديدة لتبلغني أنه لا أحد في المنزل !
ركبت سيارتي وتوجهت إلى الشركة التي كان يعمل بها جياد ،
وطلبت رأيته فوراً ، مشاعر متداخلة، خوف غريب لأول مره .. أكثر ما كنت أتحاشاه ردة فعله السلبية بمجرد رؤيتي بعد هذه السنتين ..
- ساري: من فضلك هل أجد هنا جياد ؟
- السكرتيرة : أجل إنه في المكتب .. من أقول له .
- ساري : قولي له أني أودُّ مقابلته من غير اسم .
- السكرتيرة :سيدي ثمة شخص يود مقابلتك .
- جياد : ألم يخبركِ من هو !
- السكرتيرة : لا ..
- جياد : دعيه يدخل .

كان يمسك القلم ويكتب على الأوراق الشعواء في المكتب ، كما هو لم يتحول ولم يتبدل بل إن صورته القديمة هي صورته الآن وعلى نحو أجمل .. رفع رأسه ليرى من دخل عليه ، و بدأ الارتباك يتسرب بكل وضوحٍ إلى تقاسيمي بقدر ما حاولت إخفاءه ..عجزت ، الهيبة التي لا فسحة لإنكارها تعود ، هيبة حضوره في الأشياء والمشاعر والوجود ، هيبة لا يطيقها حتى الجمود الجَمود! وجدت نفسي ضعيفًا جدًا أمامه ! مستسلم لردة فعله .. عندما نظر إلي شعرت أن لحظة رعب حنطتني في مكاني ، نظرة افتقدتها سنتين مشدود بها وجل منها ، فتح عينيه متفاجئًا بهذه الزيارة !.. فتح عينيه لأتلعثم ضوعًا وطوعًا من نظراته .. شعور غريب اصطحبني إلى عوالم التخمين والحِراك، شعرت بأني مشتاق إليه كثيراً وأنني الآن أجد راحتي ..! هو ذاته الشيء الجميل الذي كنت أحضى به كلما كان

قريبا مني يعود .. لم اكن افكر بشيء لفرط الأحداث والهدوء.. لم أكن استطيع أن أقول شيئًا لفرط ما يجب أن أقول.. ارتفعت حرارة جسمي فجأه وبدأت أتصبب عرقًا .. التماهي يتكلم بيننا ، ثم نطق ..

- جياد : لما أنت واقف في مكانك ؟ هيا استريح .
- ساري : ها أجل .
عندما جلست على كرسي بطرف المكتب لم أكد لأنظر إليه فقد كان يتولى ذلك هو .. بصمتٍ غامض طويل .. دقيقتان من الصمت .. ثلاث دقائق من الصمت .. المزيد من الصمت ..الكثير من الصمت والصوت والعتاب ، والموت و الحياة ، ينظر إلي وكانه يتعمق في ذاتي هل أنا ساري صديقه أم ساري عدوه اللدود ، ومالذي جاء بي الآن بعد هروبي المتعمد، طوقتني نظراته بالخجل من تصرفاتي تارة وبرغبة شديدة بأن أفنى لقوة لوم عينيه تارةً أخرى .. اختنق بنظراته وأود لو أبكي ..كم أشتهي البكاء.. بدأت عيني تلمعان لشدة شوقهما للبكاء ليقطع طرف تفكيري بسكون ..
- جياد : ماذا تحب أن تشرب .
- ساري : لا شيء شكراً ..
جياد(يتصل): ألو .. اثنان من القهوة لو سمحت .
القهوة مجدداً ..!!
- ساري : بدون سكر لو سمحت .
- جياد (يتحدث): واحدة بدون سكر .
أغلق الهاتف وابتسم ابتسامة غامقة اللون ساحرة التأثير ونظر إلي بتأمل..شعرت براحة شديدة عندما ابتسم كأني كنت انتظر ابتسامته التي لم أتوقعها ، كأنها جاءت لتكون لي راية بيضاء وسلام داخلي

بحثت عنه طويلاً ، فتحت تلك الثغور من شفتيه الفرصة لي لأتكلم بكلمات متعرجة .. كانت مريحة ودافئة .. ربما كانت كذلك .
- ساري : اممم جياد أنا ..
- جياد : قُل ؟
- ساري : أنا أعلم أن ما حصل قبل سنتين أكبر من أن ينسى العمر بأكمله واعلم كم كنت ضعيف الشخصية ورذيلاً ووغدًا لأفعل بك كل ذلك ..
- جياد (بهدوء) : ساري .. تحدث من غير دموع من فضلك .

ماذا أقول يا جياد اشعر بالخجل كثيرًا مما حصل ، لا أجد سوى البكاء سلوى لحالي التعيس ... اسكت الدمع لساني دقيقتان أُخريتان ، وقام جياد من على مكتبه ليطالع بترقبٍ النافذة ويضع يده في جيبه متدليًا منها مفاتيح مكتبه.. وأنا ابكي بكل ضعفٍ وانهزامية طالما أخفيتها عن الناس اليوم أجد نفسي عاجز عن إخفاء أي شيء ..اليوم كما أنا !
نهضت من كرسيي بلا شعور واتجهت نحو جياد ونزلت إلى الأسفل ، الأسفل كفعلتي ، لأقبل قدميه بدون أي تفكير لعله قد يغفر لي .. فردعني فورًا ومنعني من تقبيلها منزعجًا ..
- جياد : ساري كفى أنت عزيز كريم .. لا تفعل ذلك .

- ساري : أرجوك سامحني .. أتوسل إليك لم أعد إلا ذليلاً هربت خوفًا من السجون بعد أن آذيتك .
- جياد : ولما أتيت اليوم !
- ساري : لقد عملت هناك وأتممت دراستي واستطعت أن اجمع ثمن المال الذي سرقته منك وتقاسمته مع هزيم .. تفضل ، لا أريد

أن يبقى لي عليك حق .. وها أنا قد أتيتك بنفسي لكي تسلمني للعدالة .. أنا متأكد أنهم يبحثون عني إلى اليوم .
- جياد : احتفظ بالمال لقد سامحتك بخصوصه .
- ساري : لا مستحيل هذا حقك ومالك ، وأنا الآن نادمٌ تائب .
- جياد : أنا الآن في بداية تجارتي و تتساقط الأموال فوق رأسي بسبب المقاولات وشركات والدي ..لست بحاجة لمحفظة افتقدتها قبل سنتين .
- ساري : حتى ولو .. هل ستأخذني للسجن ؟
- جياد : هل تود ذلك ؟
- ساري : لا أود ولكني استحق ..
- جياد : إذًا جهز نفسك .. غدًا تعال إلى هنا عند التاسعة صباحًا لنذهب إلى المحكمة .
- ساري (بألم): حسنًا ..أنت لم تبلغ عني طول هذا الوقت لماذا تود ذلك الآن !
- جياد : لأنك كما قلت .. تستحق . والآن انصرف لدي عمل عليّ إنجازه .

خرجت وأنا أبكي بمرارة ، لقد أحسست بطعم الذل و المهانة وأن جياد يريد أن يثأر لنفسه الآن ، أنا السبب مما جرحته لنفسي .. عدت لأستقبل أهلي وأعاملهم كأنه اليوم الأخير لي معهم ..
ثم دخلت غرفتي أصيح فزعًا كلما تذكرت أن شبابي الباقي سيضيع في السجن ..جلست أصلي الليل كله واطلب من الله أن يساعدني ، بعد أن استغنيت عن العباد وعلمت أنه لا المحاكم ولا أهل المحاكم ولا جياد قادرين على أن يضروني أو ينفعوني إذا لم يكتب لي الباري

ذلك ..
خرجت منذ الصباح الباكر بخطواتٍ ثقيلة وبعينين لم تذوقان طعم النوم إلى مكان عمل جياد .. أمشي يجرني الانكسار و يرفعني الندم وينصبني المصير فأنا المجرور مرة والمرفوع مرة والمنصوب طويلاً ..خرجت وقد استسلمت للأمر الواقع .
وصلت مكتب جياد ولم أجده فبقيت في الخارج ولم أدخل مكتبه .. حتى جاء وخلع نظارته الشمسية ورآني أفرك أصابعي ارتباكًا على الأريكة ..
- جياد : صباح الخير .
- ساري : صباح الألم .
- جياد : رباه! ما كل هذا التشاؤم !
- ساري : سأبيت الليلة في السجن !..
- جياد : أوه لقد تذكرت .. هيا إلى سيارتي .
- ساري : اءء جياد أنا لا .
- جياد (يمسك بيده): هيا كي لا نتأخر .

صعدت سيارته في الأمام بالمقعد الجانبي .. ما أعرفه أن المجرمين يركبون في الوراء !.. هل يحاول منحي إكرامًا قبل الذل المحتم !! كان صامتًا لا استطيع حتى أن أخمن ما مزاجه ، وغامضًا بنظارته السوداء الفاخرة ذي العلامة الأصلية وأنيقًا ببدلته الرسمية .. وكنت بثياب بسيطة وعينين ساهرتين وحاجبين منكسرين .. ينهمر الدمع بلا إرادة فألف أو أشيح بوجهي لكيلا يلتفت له ويرى ضعفي ، وكنت كلما أتوجل إلى ما أنا متوجهٌ إليه أكره حتى أن يستحضرني وجهه ذلك الماكر ، من لا أرجو أن يرحمه الله هزيم .. لقد كنت فأرًا في مصيدته .. بقيت استغفر الله وأتضرع إلى الله في داخلي بأن لا

يتركني ولكم يزيدني بطءُ الطريق والازدحام ضيقًا.. حتى توقف جياد عند محطة بنزين وخرج بدون أن يخبرني إلى أين يذهب ، ثم عاد وقد استغللت فرصة غيابه بأن أُفجر الدمع الذي تجمع في عيني ثم امسحه بسرعة البرق قبل عودته .. كي أكون أقوى في المحكمة ربما أكون أقوى بلا دمع ..ركب السيارة بعد أن عبأها بالبنزين ونظر إلى وجهي المتوهج الوريق المنفي بالدمع
وعيناي الضحِلتان الواسعتان الصغيرتان المحمرتان .. ثم أعطاني عصيرًا وفطيرة .
- جياد : الطريق طويل ، لا شك أنك لم تفطر كل شيئًا ..
- ساري : لا .. لست جائعًا سنتأخر .
- جياد : ساري .. لن أتحرك قبل أن تشرب العصير على الأقل .

عنوة فتحته وشربت ثلثه بلا رغبة ، ما فائدة كل هذا ولما تفعل ذلك أنت تطعم وتشرب مجرمًا !!..تأخذه الآن إلى الظلام الحالك .

ارتدى نظارته واستمر في المسير ، مضت ساعة وهو يسير دون أن يهمس بحرفٍ أو تأوهٍ لي ، كان فقط يردُ على اتصالاته المهمة ..
- ساري : متى نصل ، لقد خرجنا عن حدود المدينة .
لم يجب عن سؤالي المنسوج بالفزع .. وتابع سيره إلى أن أوقف سيارته في مكان ما .. مكان أذكر أنني زرته معه من قبل !!
- جياد : هيا أنزل .
- ساري: لا أرى محكمة .
- جياد : أمستعجلٌ أنت على السجن !.. أنزل وكفى .
نزلت لأرى طبيعة خلابة وبيوت من ورائي فاخرة و هادئة ونافورة حولها أزهار بنفسجية ومخمليه وكراسي .. جلس على أحد الكراسي

حيث كانت الشمس ساطعة .. والجو دافئ..أحدث نفسي أليست هذه المنطقة الساحلية التي زرناها سويًا ذات مرة! بلى هي ..
- جياد : دعنا نسترح هنا ، تعال وأجلس بقربي .
جلست على نهاية الكرسي .. خشيت أنه يكرهني ويكره أن اقترب منه .. وخفت من القرب كثيرا .
- جياد : ستقع يا حباب ، أقترب مني ما بك ؟
- ساري (يقترب): كيف لي أن اقترب ممن ظلمته .
- جياد : أرفع رأسك .. أنا معجب جدًا بشجاعتك! لقد كبرت بعيني حقًا عندما سلمت نفسك لتنال جزائك .

يتكلم وكأنني أريد أن لا يكون سوى صديقي .. يتكلم فينزع من قلبي كل شيء سوى الندم على ما فعلت بحقه، كدت أن ابكي بل أنوح مجددًا وبدأت عيناي تدمعان، فلم أجد سوى أن أغير الموضوع .
- ساري : الجو جميل والمكان أجمل هنا .
- جياد : آه يسرني أنه أعجبك .. لكنك لست بارعًا في اختلاق مواضيع للتهرب.
- ساري (يبكي بتعب): لقد استسلمت لكل ما سيأتيني .
- جياد : ساري .. أنت رجل قوي لا أود أن أرى دموعك .
- ساري : لقد حيرتني ألن تأخذني إلى السجن لماذا لا تود أن ترى دموعي وانت تعلم أني سأبكي دمًا سنين شبابي هناك !!
- جياد : عندما أتيت وأعطيتني المال الذي سرقته هذا أكبر دليل على إيمانك وندمك .
عندما طلبت منك أن تأتي لأقاضيك في المحكمة أتيت من فورك ولم تتهرب كما السابق وهذا أكبر دليل على إيمانك وندمك .
عندما وقفت عند المحطة وتعمدتُ أن أترك السيارة مفتوحة لم

تحركها وتهرب وأنت في أسوأ حالاتك النفسية وهذا دليل على ندمك وإيمانك .. لقد كنت تستحق السجن لكنك اليوم لا تستحقه لأنك صادق بتوبتك ، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له ..

- ساري : هل تعني أنك لن تأخذني إلى المحكمة !!

- جياد : هههه لو كنت أود أخذك لما أتيت بك إلى هذا المكان الجميل .. وربما لفعلت ذلك قبل أن تراودك فكرة الهروب ..أي قبل نحو سنتين .

- ساري : هل يعني هذا أنك سامحتني !

- جياد : منذ أمدٍ بعيد ..!

- ساري : ولكنني فعلت شيئا كبيراً !.. كيف صبرت ولم تبلغ عني ولم تسمح لسعد بذلك ولم يعلم حتى أهلك شيئا عما حصل !!

- جياد : الصديق الحقيقي يا ساري إن لم يغفر لصديقه زلاته لا يستحق أن يكون صديقًا ..الله يغفر للعبد الذنوب جميعها وقد غفر لقاتلٍ التسع والتسعين نفس والمُتِمها بالمائة فمن نحن لكي لا نسامح ! لقد عرفتك أكثر مما عرفت أهلي ، لبَنتك طيبة إلا أنك ظننت ذات يوم أن كل شيء سيكون على ما يرام إذا اختفيت، لأني عقدة مقارنة مع ذاتك أليس كذلك !

- ساري : تبين لي أنني كنت أفكر بطريقة خاطئة .. أنا .. آسف ..

- جياد : هل عدنا لنبكي مرة أخرى !

شهامة جياد أراحتني بشكلٍ متصاعد .. احرجني بنبل طبعه وطيب أصله .. اليوم الناس تتهافت للثأر ممن آذاها وأعود بنفسي بعد سنتين لأمنحه كل فرص الانتقام ليقول لي سامحتك أنت بلبنة طيبة !! أي مثالية منك غير مُزجاةٍ هذه يا جياد !

اليوم فقط أدركت لما الجميع صغيراً وكبيراً يحبك، لما الكل يتمنى القرب منك وكم كان الناس سيكرهونني وكم كنت لأكره نفسي لو

قتلتك .. وكيف أن الغربة دروس حكيمة تعلمنا بكرمٍ باذخ ما لا نستشعر قيمته في الأوطان و كيف أن الاستغناء والثقة بالله لا تؤتي إلا ثمار الخير ..
اليوم فقط أذرف الدمع لا أدري أيكون فرحًا بالنجاة أم يكون حزنًا بالندم .. أبكي وأبكي ليحتضنني أخي بعد فراق طويل وأيام عاصفة .. ليحتضنني عله يستوعب سيلان أدمعي ، وأنا أقف بجانبه أشعر أنني لا أريد صديقًا إلا جياد .. لقد تحملني عندما كنت أسوأ شخص في العالم ، وتقبلني عندما لم أتقبلني !
- ساري : لقد اشتقت إليك كثيرًا يا أخي .
- جياد : يبدو أن الغربة جعلتك تصحح مفاهيمك .. الحمدلله .
- ساري : لقد اشتقت إليكَ كثيرًا يا أخي .
- جياد : لماذا تكرر جملتك لقد سمعتها .. وأنا كذلك تركت فراغًا كبيرًا وفقدت ثقتي بكل من حولي من بعدك .
- ساري : جياد هل ترضى بأن نعود كما كنا .. أعلم أن هناك أشياء لا تعود كما كانت كالثقة وقد خذلتك .
-جياد : ما زلت أثق بك ، وما عدت أذكر برجوعك إلى رشدك اليوم أنك خذلتني قط .
فرحتي والله كانت أشد من أي فرحة ذقتها في حياتي .. لقد حفظت ذلك التاريخ عن ظهر قلب لما هو مهم عندي وأسميته يوم العفو 29/ مارس/ 2015
جياد .. رعاك الله ما ارعويت بي .

****

البارت الثامن

(وحان موعد الحلم الحقيقة ، معارج للنهوض)

قد ننجح بإيقاد مدفأة وسط غابة تضخ البرد والظلام ، بأن نجمع أكبر قدر ممكن من الخشب والحطب .. لكن ليس بالضرورة أنها ستمنحنا الدفء ، فربما نكون في الصيف ويتصاعد المحيط بالرمض ، فتمنحنا بدلاً من الدفئ اللهيب .
قد يكون الفرار من الألم حلاً .. لكن ليس بالضرورة أن يكون حلاً دائمًا ..
ساري عاد في الزمن المتأخر ليعلن ندمه ، و ليته لم يعد ، فقد وجدت نفسي راضخًا أمام دموعه رغم كل حزمي ، هو لا يعلم ما حصل معي عندما غاب .. لا يعلم كم يبدو التسامح والتصالح معه صعبًا أضعاف صعوبته ،
قبل سنتين أخذت جولة جادة لجميع مكاتب المسؤولين في الجامعة ، عدت أحاول تمويههم أن السيجارة التي عثر عليها بقرب المخزن كانت قد سقطت سهوًا من أحد المدخنين وهو يتمشى في المبنى وأن قطعة الحرير كانت عبارة عن قماش خاص لمسح النظارة .. وربما رآها شخص ما وحاول أن يستخدمها لإشعال سيجارته ثم سقطت وهي لم تنطفأ بعد ..
ولم يكد يقتنع أحد بأن هذه الصدفة هي العِلة ، فأخبرتهم بأنه ربما لو تفقدوا المخزن لوجدوا عطلاً في إحدى آلآلات أو احتكاكًا بالمحركات ..ومر وقتٌ طويل وهم يبحثون عن خيط يوصلهم للفاعل ولم ينجحوا ، هزيم لم يمنعه من أن يفضح ساري إلا أنه مشترك معه بالجريمة ، وسعد لا يود أن يخسرني أو يدخل في

قفص الاتهام فلم يبلغ أحداً ، أما أنا فقد منعني عن الإبلاغ عدة أسباب وقتها .. منها أن ساري كان صديقي ولا يمكن أن اهدم مستقبله بيدي حتى لو أخطأ في حقي، ومنها أنني شعرت بمدى غيبوبته عن الوعي خصوصاً بعد أن اكتشفت أن سوار أخته من أمه صار مجنوناً يبحث عن أية طريقة لينتهي كل شيء، ومنها أنني مؤمن أن كل إنسان يجب أن يمنح عدة فرص وأنه سيعود لصوابه يوماً .. آلمني كثيراً ما حصل ، كنت إن اشتقت إليه لا أدري أأذكره صديقاً أم عدواً .. بقيت على هذه الحال قرابة النصف سنة ، حتى انتهت السنة الثانية، وفي السنة الرابعة انتهى عقدي لمنصب رئيس مجلس المستشارين الطلبة أنا وبقية الأعضاء وتم تعيين غيرنا ..
وكانت تلك فرصة لأستغل السنة الأخيرة
من البكالوريوس فيالاهتمام بدراستي ، تخرجت وها أنا الآن أعمل موظفاً مع والدي في شركته الكبيرة للمقاولات، مر كل شيء سريعاً ولكنني لم استطع رغم كل الألم أن أنسى ساري وسوار ..
ما زلتُ كلما زارت والدتي والدته أحتفي بالغضب الصامت ، لما تزور من يجب أن ننقطع عنهم !.. لم يعد بيننا رابط ، فساري لم يعد صديقي وسوار لم تعد خطيبتي و رغم ذلك والغريب بذلك أن علاقة الأسرتين لم تضعف مع أن والدة سوار انزعجت من فسخ الخطوبة لبعض الوقت إلا أن المياه عادت إلى مجاريها مجدداً .
هذا اختصار لما حصل حتى تخرجت ..
أنا الآن اعمل في الشركة بدوام جزئي وأسعى
لإكمالالماجستير وهذا كل ما يشغلني ..
علاقتي مع بقية الأصدقاء ورغم تفرقنا وانخراط كل شخص بعمله ما زالت قوية .. و ما زلنا نلتقي إما في النادي أو فيالاستراحة أو نجتمع كل عطلة نهاية أسبوع في مكانٍ ما أو بمنزل أحدنا ..
تعرض أمي علي كل يوم فتاة للزواج، و ما زلت لا أجد من تناسبني وتناسب تفكيري ..إلى أن طلبت منها أن تتوقف عن إتعاب نفسها بلا جدوى .

اليوم هو الجمعة كانت ليلة ربيع رطبة قليلاً ، خرجت كعادتي إلى حديقة المنزل لأرى ساري يسقي ثيل حديقة منزلهم ، رآني وابتسم فناديت عليه ..
- ساري : أراك تسهر مع القمر ؟
- جياد : لم أعد أسهر معه بل معك .
- ساري : أصارحك ، أشعر أنك ما زلت تكرهني .
- جياد : لما ؟
- ساري : أتساءل إن كان يمكن أن تعود علاقتنا كما كانت في السابق .. نحن لم نعد نلتقي كثيرًا وأحاديثنا باردة .. أعلم أنك متفضلٌ علي لكونك عفوت عني ومن البديهي أن لا تعود كما كنت .
- جياد : ساري ..
- ساري : ها ؟
- جياد : أرفع رأسك ..
- ساري : حسنًا .
- جياد : أحبك .
- ساري(يبتسم) : أحبك .
- جياد : لقد تخرجت للتو بشهادة لغات من بريطانيا ألن تعمل ؟
- ساري : رغم أن شهادتي معترف بها إلا أنني لم أجد إلا فرصة عمل في السفارة البريطانية وقبل يومين اتصلوا بي وأخبروني أنهم عينوا موظفًا ..
- جياد : هل ستوافق لو عرضتُ عليك أن تعمل في قسم الترجمة والتسويق الأجنبي بشركة والدي ؟
- ساري : لما لا تعين غيري !
- جياد : صديقي أفضل من الغريب ، بالمناسبة الراتب عالي جدًا لأن الأرباح كبيرة عندنا .
- ساري : أنت تقدم لي الكثير وأنا لا أستحق .
- جياد : تستحق تستحق .. أكثر مما تستحق .

بدى أول يوم له في تلك الوظيفة مريحًا ولم تكن الأعمال التي تطلب منه مكلفة ، وكنت عندما انتهي أنادي عليه في مكتبه لنخرج سويًا للمطعم ومن ثم نعود إلى المنزل ، كل شيء كان على ما يُرام ..الوظيفة على ما يُرام علاقاتي عليما يُرام .. سألته بعفوية ذات مرة ..ينفذ منه عبثًا ..وألجُ بالسؤال .

- جياد : ساري ألن تتزوج !

- ساري : ومن سترضى بي !

- جياد : أتعلم أني لو كنت فتاة لتزوجتك !! كيف تقول مثل هذا عن نفسك .

- ساري : هههههههه هذا مضحك مبكي ..

- جياد : أنا جاد !

- ساري : في أن تتزوجني هههههههه.

- جياد: لا .. بل بأن تتزوج .

- ساري: دعك مني وأخبرني لما لم تتزوج أنت الوسامة والفخامة والأخلاق وكل شيء فاتن بك .

- جياد : ربما لأنني أود أن أكمل الماجستير والدكتوراه .

- ساري : ليس سببًا مقنعًا ..!! الدراسة لا تمنع .

- جياد : ربما لأنني لم أجد فتاة تبحث عن جياد بل وجدت الكثير من الفتيات اللواتي قطفتهن أمي بعناية يبحثن فقط عن شكلي ومالي واسم عائلتي المعروف.

- ساري : هل تتوقع أنك ستجدها يومًا ؟

- جياد : وجدتها .. ولكني لم أود أن أسيء لها ولذويها فأنهيتكل شيء!

- ساري : من !!!!!

- جياد : أختك .

- ساري : أعلم أنني السبب .. لقد سببت لها صدمة عاطفية في فترة حماقتي .

- جياد : كيف حالها الآن ؟
- ساري : منشغلة بدراستها .. ولا تتكلم معي ربما صارت أكثر نضجًا.
- جياد : هل تقدم لخطبتها أحد ؟
- ساري : لماذا تسأل بكل هذا الاهتمام ..!
- جياد : لا مجرد سؤال .
- ساري : تقدم لها اثنين ولم توافق على أي أحد .
- جياد : بلغها سلامي ... ودعواتي لها بالتوفيق .

تخفي حبك على نحوٍ فاضحٍ يا صديقي ، الإخفاء الذي يستر ليفضح ، التحملق الذي يطول ليقصر .. بفكرة خطرت ببالي ،ماذا لو عرضتها عليك ، هل ستوافق هي بعد أن تألمت طويلاً وهل ستوافق أنت بعد أن أقنعتَ نفسك بأن سنتين لن تعيدان حب مضى ..
- ساري : سأجبر شقيقتي أن تتزوج عند أقرب شخص يتقدم لها ..
- جياد : إياك أن ترغمها .. هذا لا يجوز .
- ساري : أعذارها واهيه بعدم القبول ..
- جياد : ساري .. أعلم أنني اتخذت قرارا قاسيا في حقها ولكن أنت وحدك تعلم السبب .. وأنا أود أن أتقدم لخطبتها مرة أخرى بعد أن عادت علاقتنا كما كانت .
- ساري : ولكن كيف سأقنعها بأنك جاد !! كيف سأخبرها أنني أنا السبب لفسخك الخطوبة سابقا وليس انت !! وهل ستوافق !
- جياد : سآتي مع والدتي غدًا مساءا .. دع هذا الأمر لي .

لم يعد ساري يخاف شيئًا من حقيقتيه ، فولاذية مبادئه الجديدة تعطيه العزم ليصحح أخطائه ، وليتغير .. لم يخبر أخته وأمه سوى بأن الجارة قادمة لزيارتنا بعد العشاء اليوم ، دخلت أنا وأمي بعد ترحيب طويل من والدة ساري وجلسنا في الصالة .. وكان ساري قد ذهب إلى غرفته لئلا يحرج أخته (هكذا اعتقدت) ..!

- السيدة ليليان : هنادي يا عزيزتي أنتِ وحدك تعلمين معزتك على قلبي .. ومحبتي للتقرب منكم اكثر لطيبة وأصالة معدنكم .
- السيدة هنادي : بلا شك يا صديقتي وجارتي ..
- السيدة ليليان : هل سترفضين لي طلبًا لو طلبتك ؟
- السيدة هنادي : لا يرد الكريم إلا اللئيم ..
- السيدة ليليان : وانتِ الكريمة وابنة الكرام .. لقد طلبت يد ابنتك سوار لجياد .
- جياد : خالتي أعلم أن الوقت الضائع لا جدوى منه ، ولكني لا أود سوى أن ارتبط بكريمتك وأخت صديقي .
- السيدة هنادي : يا بني .. ألا ترى أنك تندفع ثم تغير رأيك، لما رفضتها سابقًا بعد أن كانت خطيبتك !
- جياد : كانت لدي بعض الظروف الخاصة وخشيت أن أضرها بسبب هذه الظروف أما الآن فأنا لدي وظيفة مرموقة وأستطيع تأثيث منزل خاص ودفع أكبر قدر مطلوب من المهر .

- السيدة ليليان : صدقيني لقد عرضت عليه الكثير من الفتيات ولكنه يرفض في كل مرة بسبب الذكريات والتعلق القديم .
- السيدة هنادي : وأنا لا أود أن اقتل الحب بينهما ولكن يجب أولاً أن أعرف رأي ابنتي ...
خرجت سوار من غرفتها وهي تظن أن أمي وحدها الزائرة ..
خرجت إلى الصالة بعفويتها المنزلية .. خرجت لأراها بعد سنتين وقد تغيرت بعض الشيء ..
- سوار : أمي هل الخالة ليليان عندنا ؟
رأتني الخجولة ..فتلعثمت ولم تعد تستطيع أن تتراجع ..تتحشرج ، تمشي خطوات مطأطأة الرأس إلى والدتي التي دعتها وسلمت عليها وأجلستها بجانبها ..
- السيدة هنادي : سوار عزيزتي جياد أتى اليوم خصيصًا من أجلك ..

- السيدة ليليان : أنت تزدادين جمالاً كلما تكبرين .. الفتيات وريفات وريقات بهاءً عمرًا بعد عمر .
- جياد : سوار .. كيف حالك ؟
لم تتكلم وكأنها لا تنوي فتح ذاكرتها مرة أخرى ، لم تقل حتى أنا بخير ..غريبة ! .. واثق أن "بخير" لا تستدعي جهدا باذخًا ..
- السيدة ليليان : حبيبتي ما بك ! جياد يود أن يطلب يدك مرة أخرى وأرجوا أن تفكري بالموضوع ..
سوار بصوت مرتفع قليلاً تقف أمام الجميع بدموع غاضبة :
- وهل أنا سلعة لم ترق لحضرة المغرور المتغطرس جياد ليعيدني إلى المتجر ويستبدلني بأخرى ثم يعود بعد أن تجرعت مرارة الأيام في سبيل نسيانه ! تركني حطامًا ويطلب يدي اليوم شفقةً عله لا يرجعني مرة أخرى !!!
- السيدة هنادي (ترتبك) : ابنتي طيبة ولا تبوح بما في قلبها صدقوني .. إنها فقط غاضبة الآن .
- السيدة ليليان : صغيرتي !! أنتِ لا تعرفين الحقيقة صدقيني .
- سوار : دعيني يا أمي أتكلم لماذا نسكت عن حقوقنا .. جياد قد لا أكون ثرية مثلك ولكنني أملك كرامة حاولت سلبها مني بكل عنجهية ذات ليلة أليمة !!.. لقد وزعتموني على مائدة رغباتكم كأنني أطباق وملاعق لا كأنني فتاة بمشاعر ! لن أنسى ذلك لكم أبدًا ..

- جياد : سوار .. رغم كل الألم الذي صنعته لك أنا لم أندم عليه لأنني لو تزوجتك في ذلك الوقت العصيب لعانيتِ معي ألمًا أشد.. لم أكن أفكر سوى بمصلحتك أرجوك لا تحكمي علي بأني سيء لظروف أجبرتني على اتخاذ الحل العقلي المؤلم ..
- سوار : لا أصدق ..
- جياد : لماذا أعود لطلب يدك إن كنت غير صادق بمشاعري سابقًا لما لا تحكمين المنطق !

بعد تلك الجلسة التي لم تكن كما توقعتها ولا كما توقعتها أمي .. مر أسبوع بانتظار رد سوار الناقمة علي .. لم أكن سوى لأعذرها واصبر على غضبها إلا أن الانتظار أصبح يحرقني فطلبت من والدتي فوراً بأن تزورهم عصر السبت وتنظر رأيهم وأنا متحمس جداً لمعرفة رأيها ..
كم قلبك يا فتاتي طيب كطفلة، ربما لهذا تعلقت بك ، لقد قالت إنها موافقة بابتسامة .. وعادت أمي لتخبرني بكل ما قالته لها : " خالتي أنا لم أنسى جياد وقد اقتنعت بأن ظروفه التي منعته وأنه الآن جاد بالزواج .." لم تسعني الأرض يومها من الفرحة ، تحلق الكل حولي يباركون لي ويباركونني .

الحمدلله ، فقد كتبها الله لي زوجة صالحه ..وجاء الصيف ليعلن الأفراح والليالي الملاح ، وتمت كل مراسيم العقد والزفاف بأحسن ما تمت به ، الآن ساري يودعنا في المطار ، أسافر مع عروسي لقضاء شهر العسل ..

- ساري :لن أوصيك يا صديقي ، أهتم بأختي فهي أغلى ما أملك !

- جياد : بالتأكيد فوق ما تتوقع وترجو .

- سوار :أخي أعتني بأمي في فترة غيابي .

- ساري : أفعل ، رافقتكما السلامة .

غروب شمس النهار الأخير من هذا الشهر ، سنعود غداً يا زوجتي .. سنعود بعد وقت لطيف ومتجدد قضيناه سوياً ، أتسائل ماذا يفعل ساري في هذا الوقت ! على الأرجح إنه مشغول بشيءٍ ما !

حديث يختلج في نفسي ويدور ، حركني للاتصال به .

- جياد : صديقي العزيز اشتقت إليك .

- ساري : للتو خطرت ببالي ، متى تعود ؟

- جياد : غداً .

- ساري : جياد ثمة حفل عليك حضوره غداً الساعة السابعةمساءً ، أرجوك عد قبل الموعد .

- جياد : حسنًا ، لكن حفل ماذا ؟

- ساري : مفاجأة .

ضاعف فضولي كلام ساري الأخير ، ترى ما ذا حدث في غيابي ، كل ما كان يصلني عنه أنه بدأ بتطوير عمله في الشركة !

اليوم يقف ساري على المسرح ، تقف الذات التي حقرت نفسها مراراً ، تقف أمام الكتاب والأدباء والجمهور الغفير ، أجلس في مقدمة الكراسي .. سوار و فارس وتركي وغانم ولينا و فدوى وجميع الأصدقاء ، والدته ووالدتي ..الكثير ممن حظروا هذا الحفل ! إنه حفل تتويج الفائز في إحدى المسابقات الأدبية الكبيرة ، الشيء الذي لم يتوقعه أحد، أن ينطق مقدم الحفل باسم " ساري" ..

أول مؤلف لبحث أدبي يترجم بجل لغات العالم ..بكل أنغام العالم .. " النغم " البحث العملاق الذي أخفاه عني مدة طويلة منذ أن عاد من دراسته ، إنها خلاصة دراسته في الخارج ، يعلنها ساري اليوم أمام جماهيره بصوت يصدح بالثقة " هذا البحث والذي سيصير كتاباً ذات يوم ، كان رسالة لي عندما طوقني اليأس ، هو رسالة لكم عندما يطوقكم اليأس ، رسالة لكل من لا يثق بنفسه أنه قادر أن

يصنع ابتسامة بِدأً ، ثم يغير العالم ، رسالة لنمنح أنفسنا بعض الفرص ، فهي تستحق ذلك ، رسالة لكل من عاش في الألم وموسيقى تحقير الذات أن يتذوق النغم ، النغم الخاص به ، النغم الخاص له ، نغمه وكينونته وذاته ... أشكر أيادٍ بيضاء امتدت لي يوماً ، وقلوب نقية وقفت معي طويلاً في حياتي وصبرت علي ..أمي الغالية وأهلي ..شكرًا على كل شيء ، وشكر خاص وعميق إلى جياد ، جياد صديقي الذي لو لم يكن صديقي لما عرفتني يوماً "

يصفق الجمهور بحرارة في المسرح لساري وهم فخورون ببحثه الذي رشح ليكون البحث الفائز .. ليس لشيء أكثر من أنه البحث الوحيد الذي خرج من واقع ، من تجربة ، من تغيير .

أنهضُ من مقعدي وأصعد إلى المسرح بعينين لا تصفان الفرح و الافتخار سوى دموعاً ، حلم صديقي يتحقق .. الكادح صار ناجح ، أرتفعُ درجاتٍ حتى أصل المنصة وأكون أول من يبارك له نجاحه ، أعانقه بشدة ..بشدة .. وأبكي على كتفه بهجه ..بهجه..

- جياد : لقد فاجأتني ..أنت محط اعتزاز اليوم .

- ساري : أنت من غرس الغراس ..لن أنسى وقوفك معي أبدًا .

- جياد : أصدقاء حتى الظل . اتفقنا .

- ساري (يصافحه) : اتفقنا .

صدقوا أو لا تصدقوا ، اليوم ساري ليس لديه وقت للإجابة على رسائل المعجبين والقراء والنقاد .. كما أنه يسعى لإثراء أدبياته ورواياته ومقالاته المتعددة و المتنوعة والمترجمة ، ولعلنا سنذكر طويلاً أسم "ساري" لأنه تعلم من دروسه ولا نذكر اسم ذلك التافه "هزيم" الذي ربما نفته الأرض ، أو ارتكب على الأقل ثلاث

جرائم في السجن ، أو أقيم عليه القصاص عندما عثرت عليه الشرطة .. لا تبرح والدة ساري تستكين حتى يتزوج ، وهي لن تَملَّ ولن تكِلَّ من إقناعه أن ميَّار الفتاة الأنسب له ، تُرى هل سيتزوجها ساري يومًا ؟

ساري الذي طالما رأيناه فينا .. وجياد الذي طالما رأيناه في غيرنا .. وفي الواقع نحن نستحق أن نكون جياد إذا قررنا .. ونكون أفضل منه ..

نقطة الخطأ .. هي حبكة التغيير .. لا أزمة الانحسار في المزيد من الأخطاء .

و أنا بدوري أرفع لساري قبعة الاحترام ، ولجياد قبعة الامتنان.. الثنائيان اللذين نتمنى لو يكونان في كل صديقان ، فخرًا بك يا ساري أن يكون عملي الروائي هذا باسم " النغم ".. متناغمان .. متحابان بنغم ..

****

الحياة لا تمنحنا دائمًا أشخاصًا بمثل مقاييسنا .. الحياة قد يصادفك فيها الفقير ، الغريب ، البسيط ، وقد تتعامل مع أغنى الأغنياء فيها ، مع العلماء والأدباء ، عندها ستدرك أنك تخرج من عقدة الصيف إلى عقدة القيظ والهجير ، ولا منفى ولا مجال للهرب .

إن كنت تود فقط ، أن ترحب بأمثالك .. فحتى " أمثالك" ستجد فيهم عندما تتعمق معهم اختلافات عنك .. وستحاول أن تتقي أقلهم اختلافًا .. وحتى أقلهم اختلافًا ستتمنى لو لم يزد عنك قرشًا .. أو ثوبًا .. أو فكرة .

المشكلة ليست في الآخرين ، المشكلة في عجزك
عنالاستقرار الداخلي بذاتك ، في العجز العتيق داخلك الذي أقعدك !

أنت تكتفي بك كما أنت ، تكتفي بطباعك .. جميلها وقبيحها ، بطريقة حياتك، لا تفكر أن تتغير ..

اكتفاءك ، يعني أنك لا تود أن ترى من هم أفضل منك .

لأن ذلك يزعجك ، لست سيئًا لتحسدهم .. لكنهم كافلون بجعلك .. تتنقص من قدر نفسك أحيانًا ، تكره ذاتك ...تكرهها !

أليس من العدل أن تصلح ذاتك لتنافسهم بدلاً من هذا الكره الساذج !

ألا يجدر بك على الأقل ... التعلم منهم كيف صاروا لتكون !

ربما ليسوا ناجحين بخبرتهم .. ولا بمسافات ضوئية بالذكاء تفوقهم عنك .. ربما وهبوا عطايا إلهيه استثمروها بالقدر الأكبر وهذا كل ما في الأمر .

إنهم فقط حصلوا على نعم من الله لم تحصل عليها أنت ..كالجمال ..كالغنى .

هل يجب أن تكره ذاتك على شيءٍ قسري ..أنت لم تختر والديك ، و والديك لم يختاراك أنت لتكون ابنًا لهما أو بنتًا ..إنها المشيئة ..المشيئة التي تسبق كل شيء .

الرضا .. الثقة .. الحب ، ودونهم لن تعيش ، وإن عشت فلن تسعد بالحياة .

وإن أكبر عيب في الإنسان أن يرى نفسه بشعًا في الوقت الذي يكون بإمكانه أن يُجمل نفسه بالخلق والروح النقية ! وإن أكبر نقصٍ وفقرٍ في الإنسان .. أن يرى نفسه معدمًا معدومًا لنقص النقود من جيبه .. ويتغافل كم يملك كنوزًا في أعماقه ..غنى النفس أليست هي الكنز الذي يفتقر إليه الكثير ! غنى العقل و استثمار الأفكار .. أكل هذا لا شيء مقابل المال والجمال ! لماذا نصنع وهمًا بإحجامٍ مضاعفة ونمكث عنده طويلاً !

الناس تشتري الفكرة التي استثمرت بأموال عديده .. المال لا شيء مقابل العلم ..

الناس تشتري الصحة التي فقدت بأموال الأرض ..المال لا شيء مقابل الصحة ..

الناس تشتري القدرة التي انتزعت بأموال العالم ..المال لاشيء مقابل القدرة ..

قدرتك على السير بقدمين سليمتين ..قدرتك على التعبير ..على البكاء ..على التجربة .. على الحياة .

أنت ميت إن ظننت أن علاج النقص الذي تعانيه لا ينبع من داخلك . أجل ..أخاطبك .

الذين توسدوا فراشهم مساءً جازعين على واقعهم ، لاعنين حظهم الأغبر ، متناسين كثرة النعم التي تحيطهم .. ناسين كثرة المصائب التي نزلت على غيرهم وصرفها الله عنهم .. ناسين حكمة الحكيم .

ناسين .. والنسيان قدرة .. ولكنهم اخطأوا النسيان هنا ! وعجبت لصدق أبيات الإمام علي بن أبي طالب كيف وصف المعضلة الحقيقية .." عقدة النقص" ..التي يشكو منها الإنسان ! ما أغرب الإنسان !

" دواؤك فيك وما تشعر ..

وداؤك منك وما تبصر..

وتحسب أنك جرمٌ صغير !

وفيك انطوى العالمُ الأكبر.."

حقًا ، وكما يقول أحد العظماء :" ما الفشل إلا هزيمة مؤقتة ، تخلق لك فرص النجاح ".

****

_ سناء السلطان _

2015/أغسطس/20

النغم..

قالَ لي ذات مرة : ثق بنفسك أكثر .

ثق أنك تقدر .. وأنك أفضل ، وأنك جميل.

وقلتُ ذات مره : " كم أبدو جياد ! " .

سناء السلطان

© جميع الحقوق محفوظة
٢٠١٥